روافد

سلسلة كتب
ودراسات وبحوث
تصدر عن
مجلة الرافد

د. بركات محمد مراد

السنة الأولى العدد : 001 صفر ١٤٢٧ هـ مارس ٢٠٠٦م دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة



الإسلام والحوار الحضاري

الإسلام والحوار الحضاري

د. بركات محمد مراد

الإسلام والحوار الحضاري

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٦م

ابتداء من العدد ١٠٣ وعلى مدى ٤ مرات في العام العاشر تباشر "الرافد" تطوير اساسيا توخّى منه تأصيل الذاكرة المعرفية ومواجهة الاسئلة الملحة بإجابات ترتقي إلى مستواها، فيما تبحث عن تعميم مفاهيمي ورؤياوي لتلك المواضيع، وسيسهم في هذه المعادلة المعرفية الشاملة كوكبة من الأسماء المختارة ممن كانت لهم اسهامات بارزة في العطاء الثقافي للمجلة.

الكتيب المرافق سيكون مكملاً للمجلة وسيأخذ ذات المسمى الذي يحيل "الرافد" إلى "روافد" للمعرفة والتنوع والعطاء، وسيضيف إلى زخم المجلة اصدار نوعياً يوزع مع العدد الفصلي.

بهذا تكون "الرافد" قد شرعت في إبحار متجدد، كيما يصبح اسهامها الفعلي في التنوير المعرفي والثقافي قابلاً للمزيد من التأصيل، ومتساوقاً مع الحاجات المعرفية الملحة التي تفرضها التحولات الكبرى في العالم المعاصر.

المقدمة

الإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات. فقد جعل الله الناس جميعا خلفاء في الأرض التي نعيش فوقها، وجعلهم شركاء في المسؤولية عنها، مسؤولية عن عماراتها ماديا ومعنويا ـ كما يقول القرآن الكريم "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"(سورة هود آية٦٢). أي طلب منكم عمارتها وصنع حضارتها فيها. ومن أجل ذلك ميز الله الإنسان بالعقل وسلحه بالعلم حتى يكون قادرا على أداء مهمته وتحمل مسؤولياته في هذه الحياة.

ولهذا يوجه القرآن خطابه إلى العقل الإنساني الذي يُعد أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان. ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل، وفي الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التي منحها الله له، والتي هي شرط ضروري لتحمل المسؤولية، فالله سبحانه لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التي تجعل الإنسان عاجزا عن العمل الحر المسؤول. فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر.

ومن شأن الممارسة المسؤولة للحرية أن تجعل المرء على وعي بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضا، لأن لهم الحق نفسه الذي طلبه الإنسان لنفسه وهذا يعني أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هي علاقة موجودات يتنازل كل منهم عن قدر من حريته في سبيل قيام مجتمع إنساني يحقق الخير للجميع(١).

ولا شك في أن وعينا بأننا خطاءون (٢) يواكبه في الوقت ذاته وعينا بمسؤوليتنا التي ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية، الأمر الذي يمكننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية والذي

---

١ ــ د. محمود حمدي زقزوق: التسامح في الإسلام، مجلة التسامح العدد١ ص ١٢ـ ١٣ سلطنة عمان، شتاء ٢٠٠٣.

٢ــ في ذلك إشارة إلى الحديث النبوي الشريف "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" رواه عن أنس كل من الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك.

ينبغي أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنساني المشترك. والتسامح يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان. ونحن مطالبون أخلاقيا ودينيا أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والإيديولوجية.

ولا يكتفي الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطا من شروط السلام الضروري للمجتمع الإنساني، بل يطلب منهم أيضا الالتزام بالسلوك العادل الذي لا يقبل الآخر فحسب، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية.

وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح، أنه تسامح إيجابي وليس تسامحا حياديا وفي هذا يقول القرآن الكريم : "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يجب المقسطين"(الممتحنة آية ٨).

ومن الملاحظ في هذه الآية ـ وفي آيات أخرى كثيرة ـ أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذي يتطلب استخدام العقل الإنساني. ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة الآخر. والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلاما ليحفظوه ويعملوا به بطريقة آلية، وإنما يريد تربية النفوس وتحقيق الذات والعمل المسؤول الذي يُؤدى عن اقتناع.

ومن هنا يرى الدكتور "محمود زقزوق" أن النص القرآني الذي أوردناه يشتمل على ثلاثة أمور أولها: أن الله سبحانه وتعالى لم ينه عن التسامح مع الآخرين. وثانيها: أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابي معهم بالبر والقسط هو العدل، وثالثها: التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله سبحانه وتعالى(١)

وبهذا الأسلوب المقنع الذي يخلو من الإكراه على فعل شيء ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية ـ رسالة التسامح ـ إلى النفس في يسر وسهولة، وتحقق الهدف المطلوب وهو التسامح بين الناس على أوسع نطاق.

١ـ د. محمود حمدي زقزوق :التسامح في الإسلام، المرجع السابق.

ونحن نرى أنه ـ واتفاقا مع روح الإسلام ـ لابد من الارتقاء بالخطاب الإسلامي نحو آفاق حضارية واستقطاب رؤى فكرية منهجية، هي أقرب إلى النسبية منها إلى الإطلاقية، فيما يتصل بالشؤون الإنسانية، وإلى الواقعية منها إلى التعصب، وإلى البناء منها إلى الهدم.

ونظرا إلى أن الإسلام والمسلمين يعيشون بين حضارات مختلفة وثقافات متعددة، وشعوب شتى (١) فإننا نرى أن التعددية الفكرية هي دليل حيوية الأمة، وصحتها، وقدرتها على النهوض. ولعل التجربة الحضارية الزاهية التي عرفها التاريخ العربي والإسلامي، تقوم شاهد عدل على ذلك.

وعلينا الإقرار بأننا نعيش في عالم غدا صغيراً بفعل ثورة الاتصالات ويتقاسم معنا فيه الفضاء والمصير والثروات والحياة فرقاء كثيرون، نتفق معهم تارة، ونختلف معهم في كثير من الأحيان، ولابد أن نعي ذلك الاختلاف، وندرك ضرورته في حركية النمو والإبداع، فنسعى إلى تعظيم القواسم المشتركة ،لأن البشر حين يختلفون يغفلون عن تلك القواسم، ويعنون بما يميز بعضهم عن بعض، أي أنهم يهتمون بما يفرقهم ولا يجمعهم، ليغدو الاختلاف سبيلا إلى الافتراق. وعندما يعظم الخلاف بين الناس تبدأ الثقافات لغة اختزال الآخر، وتنميطه والحديث عنه على نحو يسلبه جوهره الإنساني الذي كرمه الخالق، عز وجل، بصرف النظر عن لونه ووطنه ومعتقده.

إن المسلم المعاصر يعاني ـ دون ريب ـ من إشكالات كثيرة في علاقته بالعلم والعصر والثقافات الأخرى. وقد ودعنا القرن العشرين وها نحن أولئك نستقبل القرن الواحد والعشرين ونحن نحمل معنا ثقافة إسلامية مأزومة، يخافها العالم، وتخافه، وتستشعر الكثير من العجز وفقدان المرونة. وقد أدى ذلك كله إلى ميلاد ثقافة مشغولة باختراع آليات الدفاع عن الذات، فضلا عن التوجس من التراث الإنساني المعاصر.

لقد رأينا الغرب كثيرا دون أن نبصر به، تصارعنا معه طويلا وخضنا ضده عشرات المعارك ولم نحتك به

١ـ انظر د. ميلاد حنا: قبول الآخر، الإعلامية للنشر ـ القاهرة عام ٢٠٠٢م.

حقيقة. اجتزنا البحر الجغرافي الذي يفصلنا عنه، ولم نجتز السهوب الموحشة التي تبعدنا عنه فكريا، باختصار لم نستطع أن نتعامل مع هذا الغرب القريب منا جغرافيا، المناوئ لنا تاريخيا، ولم نتوصل إلى لغة التحاور معه.

ربما كان علينا أولا أن نمتلك ذلك العقل البارد والمحايد، بحيث نضع هذه العلاقة على منضدة التشريح ونحللها إلى عناصرها الأولية بحيث ندرك السبب الذي جعلنا نتخلف بينما يواصل هو التقدم، وجعل الهزائم من نصيبنا بينما الانتصارات من نصيبه؟

ومن هنا علينا السعي إلى بناء ثقافة وحضارة ترفض التقوقع في لحظة زمنية بعينها، لأن هذا التقوقع يؤدي إلى رؤية لا تاريخية، مثلما ترفض الرؤى الإطلاقية التي تلغي الاختلافات والتنوعات بين الناس، هذه التنويعات التي عبرت عنها الحضارة الإسلامية من خلال التنوع في إطار الوحدة.

لقد شكلت العلاقة مع الآخر نقطة محورية في الخطاب الإسلامي المعاصر، وقد أعاد هذا الخطاب، في مراحله المتباينة في العصر الحديث، ترتيب أوراقه في ضوء علاقة ملتبسة مع الآخر، وأيا كانت أبعاد تلك العلاقة وأسبابها، فإن مسألة الانفصال عن الآخر صارت غير ممكنة ليس بسبب تقدم وسائل الاتصال التي حولت العالم إلى قرية كونية. بل لأن طبيعة الحياة المعاصرة في المجالات المتباينة كالعمل والاقتصاد والقانون والإدارة والطب والحاسوب وتنظيم المدن والبيئة تقود إلى هذا الاشتباك والتداخل على المستويين الفكري واليومي.

خاصة وأن هناك نظاما دوليا جديدا يتشكل الآن إذ إن انهيار الاتحاد السوفييتي ـ أحد الطرفين الرئيسيين المتصارعين ـ قد ترك الباب مفتوحا لتربع الولايات المتحدة ـ الطرف الثاني ـ على قمة الهرم العالمي ومنحها الفرصة لتدويل قيمها وإيديولوجيتها وأنماط سلوكها في الساحة الدولية، ومن ثم أصبحت بعض المفاهيم مثل الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان واقتصاد السوق مفاهيم ذات أبعاد عالمية تمثل مفردات النظام الدولي الجديد.

بل أصبح تبنيها يمثل معايير للتعامل يتم بموجبها الحكم على سياسات وسلوك الدول وفي ظل تلك العلاقة المعقدة تبلورت مقولات الغزو الثقافي، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات. وأفضت إلى رؤى إطلاقية تحتاج إلى الكثير من المراجعة والتأمل وإعادة الفحص، وهذا ما سنحاوله إن شاء الله تعالى في هذه الدراسة.

مدخل

وفي الحقيقة فإن الإسلام لا يمكن أن يكون معاديا لأي دين سماوي، ولا يمكن للمسلمين أن يعادوا أتباع أية ديانة من الديانات، لسبب مهم وبسيط، وهو أن المسلمين مكلفون، بإبلاغ الرسالة إلى غيرهم، وهذا"الغير" يشمل جميع المؤمنين بالأديان كما يشمل البشرية جمعاء.

إن الإسلام نزل في بيئة ملحدة في الغالب، تتخذ الأصنام آلهة وترتكب الموبقات، ومع ذلك فهو يبشر هؤلاء الناس بالدين الجديد، طالبا منهم إصلاح أنفسهم، ومعتقداتهم، ومن ثم فإن البيئة الأولى لنزول الوحي كانت بيئة ملحدة قام الإسلام بإصلاحها.

إن الوحي لم يعاد أولئك الناس، وإنما كان يحاول هدايتهم، ودفعهم إلى ترك العادات السيئة التي كانوا مبتلين بها. فالمسلم بوصفه مسلما يحمل رسالة الهداية والصلاح للبشرية جمعاء، بما في ذلك أبعد الناس عن العقيدة الإسلامية الذين ينكرون وجود الباري عز وجل، أو يشركون به، فكيف بالنسبة إلى أصحاب الديانات الذين لنا معهم قواسم مشتركة في أهم الأمور مثل الإيمان بالخالق، وضرورة الالتزام بالأخلاق، وهم أهل الكتاب الذين نجد بالنسبة إليهم آية قرآنية صريحة تطلب أن ندعوهم إلى تثبيت قاعدة مشتركة ننطلق منها إلى بقية الأمور، وهي قوله تعالى:" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله"(سبأ آية ٦٤).

وهكذا فإن للإسلام احترامه الخاص لأنبياء الله عز وجل جميعا، ولرسالاتهم كلها .. لا نفرق بين أحد من رسله، وهكذا فإن المسلمين يرون أنهم مكلفون بفتح الحوار مع البشرية جمعاء لشرح عقيدتهم والوصول إلى قاعدة ثابتة ينطلقون منها كي يفلحوا جميعا في الدنيا والآخرة.

ليس من مصلحة الأطراف الأخرى أن تعادي الإسلام، لأن احتمال أن يكون هذا الدين على حق أمر وارد عقلا. فإذا ناصبونا العداء فإنهم سيكونون حينئذ الخاسرين دون غيرهم. يقول ربنا:" وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين"(سبأ آية ٢٤)، إن الأمر يدور بين الضلالة والهداية ولا خيار آخر، فإما أن يكون الإسلام هو

"الهدى" ومخالفه "الضلال" وإما أن يكون في ضلالة وغيره الهدى، وهذا الاحتمال الدائر بين الهداية والضلال، يلزم الآخرين بحكم العقل، أن يحاولوا فهم هذا الدين، حتى لا يخسروا الهداية ويكونوا في ضلال مبين، كما يطلب من المسلمين أن يفهموا الأديان الأخرى، ولا يكفروا بما جاء به الأنبياء (١).

ثم إن الإسلام اليوم يشكل حركة اجتماعية، وله قوة تأثير على ساحة الصراع العالمي، خاصة بعد انتهاء "الحرب الباردة" وبداية ما يسمى أحيانا"بعصر القطب الواحد" أو حسب تعبير البعض "نهاية التاريخ"، وأية معاداة للإسلام سيدفع المسلمين إلى التقوقع داخل قلاعهم، ومن ثم رفض كل محاولات للتقارب معهم، ولربما يؤدي ذاك إلى صراعات لها بداية وليس لها نهاية، وليس من مصلحة أحد، خاصة الدول الغربية ذات الصبغة المسيحية ان تعادي الإسلام كدين او تعادي المسلمين كأمة بما لهم من مكانة سامية، سياسيا واجتماعيا.

إن للتعامل مع الإسلام كدين ومع المسلمين كأمة أصول لابد من أخذها بعين الاعتبار، لأن الإسلام طرف أساسي لا يمكن تجاهله وحري بالآخرين أن يستمعوا إليه، وأن يضعوه في الحسبان، فحتى من زاوية المصلحة المادية البحتة، فإن من واجب الدول جميعا أن لا تعادي هذا الدين، وان لا تتجاهل المؤمنين به ٠

عندما نقرر أن للإسلام مبادئه التي لا تتناقض مع هذه الديانة أو تلك، وأن من مصلحة الآخرين دراسته، فلا يعني أننا نجرد الإسلام من خصوصياته الحضارية، ورؤاه الثقافية وتعاليمه المختلفة عن بقية الديانات، وعلى كل حال فلابد من الإعلان عن وجود خصوصية في هذا الدين، وهذه الخصوصية امتياز له وليس تنقيصا من قدره. فلا نريد أن نقول إن المسيحية هي الإسلام وإن الإسلام هو المسيحية إطلاقا. ولا نريد أن نقول إن الإسلام هو اليهودية، وإن اليهودية هي الإسلام أبدا، ولا نريد أن نقول إن كل ما يجري هنا وهناك هو صحيح في نظر الإسلام ما دام يقول به مسيحيون ويهود.

هنالك أمور يحرمها الإسلام رغم أنها مباحة في كثير من المجتمعات الغربية مثل شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وغير ذلك من الأمور التي يسمح بها أتباع الديانتين، وهي بالطبع غير مسموح بها في الإسلام، وتلك واحدة من امتيازات الإسلام، وهي وإن كانت أمورا جانبية بالقياس إلى قضايا العقيدة والإيمان وأمثالهما، من الخصوصيات التي يتميز بها الإسلام، إلا أنها على كل حال من خصوصيات هذا الدين.

١ـ آية الله السيد هادي المدرس: جدلية الإسلام والغرب، مجلة البصائر العدد٢٦ بيروت شتاء ٢٠٠٢.

إن الإسلام يأمر بالعدل والإحسان، ويأمر بالرحمة والعطف ويأمر بالتعاون وبمراعاة الضعفاء، ويأمر بالكرم والعطاء، ويأمر بالعبادة والطاعة لله ولرسوله، ويمنع من الظلم وأن يأكل القوي الضعيف، ويمنع العدوان والتعدي حتى على العدو. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى"(المائدة آية ٨).

ولكن هناك مسلمون بالاسم، يخالفون هذه التعاليم فيرتكبون الظلم والعدوان، فهل يتحمل الإسلام أوزار ظلمهم؟! هنالك مسلمون فاسقون يخلطون الحلال بالحرام، فهل الإسلام هو الذي يتحمل مسؤولية ذلك؟ تُرى لماذا ينسب الإعلام في بعض الدول كل جريمة يقوم بها من يدعي الإسلام إلى دينه، وليس إلى شخصه؟ فإذا ارتكب "عربي" أو "مسلم" جريمة قتل تنسب جريمته إلى الإسلام، بينما لو أن يهوديا أو مسيحيا ارتكب الجريمة ذاتها فلا يقال: إن يهوديا أو مسيحيا فعل كذا؟

لقد ربطوا الإسلام بالإرهاب، مع أن المسلمين إنما يدافعون عن أنفسهم، وشرفهم، وأرضهم، وحقوقهم، وحتى لو افترضنا أن كل ما يجري هنا وهناك كان إرهابا فلماذا ينسبونه إلى الإسلام؟ لا يمكن تفسير كل حادثة مكروهة تقع، أو كل سياسة يتخذها الحكام الظلمة بإرجاعها إلى تعاليم الإسلام. والظلم الذي يرتكبه كثير من الحكام في البلاد الإسلامية هو ظلم المعادين للإسلام في السر وإن تظاهروا بخلاف ذلك في العلن

إن من المفارقات العجيبة أن كثيرا من الحروب التي وقعت في هذه المنطقة كانت حروبا أجنبية فُرضت على هذه البلدان، إنهم يصنعون العنف ثم يتهمون الإسلام أو أتباعه به، مع أن للإسلام تأثيرا كبيرا في كبح جماح الإنسان، ومنعه من ارتكاب الكثير من الجرائم والظلم والطغيان، ولذلك فإن المجتمعات المسلمة بعيدة عن كثير من الجرائم التي ابتليت بها شعوب كثيرة في العالم. إذاً لا الشرق الأوسط هو بؤرة الإرهاب، ولا الإسلام هو مصدره. كم هو ضيق أفق من يحاول أن يجعل من الإسلام خصما للشعوب الأخرى؟

وكم هو خطأ ما يردده البعض من أن العدو الأول للغرب، بعد الشيوعية هو الإسلام؟ "ضيق" لأنه يجعل نموذج الغرب هو الميزان والمرجعية، ومن ثم يعتبره الحق المطلق، وأن أي شيء لا يتلاءم معه فهو باطل. و"خطأ "لأن ذلك غير صحيح، فالإسلام ليس كالشيوعية، لأن الإسلام دين، والدين لا يمكن أن ينهار تحت

الضغط أو الحصار، وحتى لو انهارت كل مؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهو يبقى يتفاعل مع نفوس أتباعه ويؤثر فيها ويوجهها.

ولم تكن الديانات على مر التاريخ متمثلة في مؤسساتها، وإنما كانت متمثلة في قلوب أتباعها .. بل إن الديانات تنمو في ظروف القهر وفي حالات الانهيار أكثر مما تنمو في أوضاع الانتصار، ثم إن الإسلام يدعو إلى التعايش والوفاق والسلام، فلا يجوز الانصياع لمرضى النفوس، ممن يذكي روح العداء ضده ويتحامل على أتباعه.

ولا ننسى أن الذات الإسلامية حقيقة هوية المسلمين، والتي يجمعها لواء الشهادتين، وإن اختلفت مجتمعاتها لغة وأعراقا. فالإسلام دين أنزله الله العالم بشؤون البشر، وحاجاتهم، المترفع عن الانسياق وراء المصالح والأهواء، والقادر على وضع مبادئ تصنع للحياة كل الحياة "ما فرطنا في الكتاب من شيء" (الأنعام آية ٣٨). "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء "(النحل آية ٣٩). إنه دين شامل يعالج كل شؤون الحياة ،"إنه ـ والله ـ ما من عمل يقربكم من النار إلا وقد نبأتكم به، ونهيتكم عنه، وما من عمل يقربكم من الجنة إلا وقد نبأتكم به، وأمرتكم به، فإن الروح الأمين نفث في روعي"(١).

كما علينا أن لا ننسى أن الرابطة الدينية هي أقوى الروابط، وقد أثبتت الحياة ،أن لا شيء أقوى من الرابطة الدينية، إنها فوق كل الانتماءات العرقية واللونية واللغوية والوطنية... إنها التي آخت بين المسلمين "إنما المؤمنون إخوة .."(الحجرات آية ١٠) فصار أحدهم يقاسم أخاه كل شيء: داره وماله، حتى إنه ليطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها الآخر !! في الوقت الذي كان المؤمن يحارب أباه وشقيقه وأقرب قرابته ما داموا مشركين، ويقتلهم في سبيل الله. كما أن الدافع الديني هو أقوى دافع محرك للعمل، لأنه يخلق الوازع والضمير الداخلي، ويحيل كل شيء إلى عبادة، وتركه إلى معصية، ومن ثم لابد من إخلاص العمل لوجهه تعالى :"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"(٢).

١ـ ابن شعبة الحراني: تحفة العقول ٣٤.

٢ـ محمد الريشهري: ميزان الحكمة ٧/ ٢٩.

ولقد أصّل الإسلام هذه الرابطة وعمقها في القلوب وعدها الرابطة الوحيدة، والانتماء الأوحد "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(الحجرات آية ١٣). " لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم"(١)، وأعلنها صريحة أن أمة الإسلام أمة واحدة، وإن اختلفت الانتماءات المدعاة عند الناس "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون "(الأنبياء آية٩٢).

وحقيقة الأمة الإسلامية تتجسد في هويتها، فالهوية Indentity هي الحقيقة الجزئية، وهي مأخوذة من "الهو" وهي مقابلة للغيرية(٢). ولقد حاول الدكتور محمد عمارة تقديم تصور شامل لمفهوم"الهوية" لغة واصطلاحا مستعينا بالمعاجم القديمة والحديثة، فقال في هذا الصدد :"إن الهوية بضم الهاء مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء. وهو منسوب إلى (هو) وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون، فهي تعني كما يقول "الجرجاني " في كتابه"التعريفات" "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق". أما معاجمنا الحديثة، فإنها لم تخرج عن هذا المضمون، عندما قالت عن "الهوية" إنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضا "وحدة الذات "(٣).

فهي باختصار القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات القومية الأخرى(٤).

وإذا كان هذا هو تعريف الهوية من المنظور اللغوي والإجرائي، فإن الهوية من المنظور الفلسفي هي كلمة مولدة اشتقها المترجمون القدامى من الـ "هو" لينقلوا بواسطتها إلى العربية ـ كما يقول الفارابي ـ المعنى الذي

١ـ الحجرات آية ١٣.

٢ـ التكري: موسوعة مصطلحات جامع العلوم الملقب بدستور العلماء تحقيق د. علي دحروج ص ٩٦٤ بيروت عام ١٩٩٧م.

٣ـ د.محمد عمارة: الهوية الحضارية، مجلة الهلال ص ٣٥ العدد مصر فبراير ١٩٩٧م.

٤ـ السابق ص ٣٦.

تؤديه كلمة "هست" بالفارسية وكلمة "استين" باليونانية أي فعل الكينونة في اللغات الهندوأوروبية الذي يربط بين الموضوع والمحمول، ثم عدلوا عنها ووضعوا كلمة (الموجود) مكان الـ"هو" والوجود مكان "الهوية"، ومعنى ذلك فقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يستدل به على كون الشيء هو نفسه(١).

أما في المنظور الاجتماعي، فإن الهوية تعني تحديد الميزات الشخصية للفرد من خلال مقارنة حالية بالخصائص الاجتماعية العامة(٢). فعندما تكون الأمة مالكة لتراث حضاري غني وعريق، وعندما تكون حضارتها من الحضارات التي تألقت، فتخطت بعطائها الحدود الجغرافية لهذه الأمة ـ كما هو الحال في أمتنا الإسلامية ـ عندما يكون هذا هو حال الأمة. فمن الصعب، بل من المستحيل عليها أن تقف بنضالها في سبيل الاستقلال عند"الاستقلال السياسي" أو حتى "الاستقلال الحضاري" الذي يعيد لها استقلال شخصيتها القومية، ويزيل آثار التشوه الفكري الذي لحق بها عندما فقدت الاستقلال، وخضعت لتأثيرات الغزاة! فإن البحث الجاد عن استكمال مقومات هذا الاستقلال الحضاري يحتم عليها إثارة التساؤل عن (الهوية) الخاصة بها، وأين تلتمس معالمها وقسماتها؟ أفي تراث الأمة وموروثها الحضاري؟ أم في الوافد الفكري؟، الذي وفد إلينا منذ بدء الاحتكاك مع الغرب، والذي لا يفد إليها من خلال ما يتم على الأرض العربية والإسلامية من تحديث مطبوع بالطابع الغربي والتغريبي.

كما يثور التساؤل ـ كذلك ـ عن ماهية القسمات التي تكون"هوية" الأمة الحضارية؟ وهل الهوية هي كل التراث؟ وإلى أي مدى يصيب التطور والتغير "الهوية" الحضارية للأمة في مجرى التطور العام(٣). إن هذا التساؤل الحيوي هو سؤال الهوية الذي يطرح نفسه بين الفينة والفينة، وذلك من أجل تأكيد الذات. ولذا تعتبر "مشكلة الهوية" من أعقد المشكلات التي تواجه الكثير من الشعوب والمجتمعات الحديثة في العصر الراهن سواء في المجتمعات ذات الأصول الحضارية القديمة، أو حتى تلك التي تفتقد الانتماء الحضاري القديم وذلك لأن الهوية هي الشيفرة التي يمكن للفرد عن طريقها أن يتعرف إليه الآخرون باعتباره منتميا إلى تلك الجماعة الاجتماعية. وهي شيفرة، تتجمع عناصرها العرقية على مدار تاريخ الجماعة (التاريخ) من خلال تراثها الإبداعي

١ـ د. محمد عابد الجابري وآخرون: الموسوعة الفلسفية العربية ج١ ص ٨٢١ مصطلح الهوية، معهد الإنماء العربي، بيروت عام ١٩٨١م.

٢ـ د. فريدريك معتوق: معجم العلوم الاجتماعية ص١٩٠ بيروت أكاديميا، ١٩٩٣م.

٣ـ د. محمد عمارة : الهوية الحضارية، مجلة الرافد العدد١، ص٢، ٣ الشارقة عام ١٩٩٣م.

(الثقافة) وطابع حياتها (الواقع الاجتماعي).

ومن هنا يمكننا القول بأن الهوية الإسلامية، لا تتمثل في مجرد انتماء (إرادي) أو حمل للتسمية بقدر ما تتمثل بمنهجية حياتية عميقة الجذور وشديدة في الوقت نفسه، تتركز على توحيد الله سبحانه وتعالى بربوبيته وألوهيته وصفاته، وعلى الإيمان بأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة، وأن ما تحمله من تعاليم العقيدة والتشريعات تمثل الحق المطلق وتمثل الدين المرتضى عند الله سبحانه وتعالى، الذي يجعل صلة الإنسان بالناس كصلته بالكون المحيط به، فهذا هو المنهج الذي قرره القرآن الكريم، في قوله سبحانه وتعالى" قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"(الأنعام آية ١٦٢، ١٦٣).

ولقد جاءت القسمات البارزة لهذه الهوية منداحة عبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ومن هنا أصبحت هوية ناصعة كنصاعة الشمس في رابعة النهار، إلا أن الملامح البارزة لهذه الهوية، قد تتأثر سلبا وإيجابا إلى حد ما بما يشوب حياة المسلمين من تأزم حضاري، أحيانا، كما هو الحال في واقعنا المعاصر، إلا أن ذلك ينبغي ألا يؤثر بأي حال من الأحوال في سرمدية هذا الدين فضلا عن الدينامية القرآنية المتفجرة بكل القيم المشعة، وذلك لأن هذا الدين وكتابه المعجز من عند خالق الكون وبارئه "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"(الملك آية١٤).

أما القسمات الجوهرية لهذه الهوية فتتمثل في عدة مفاهيم وحقائق أهمها: العروبة والتدين والاعتدال. **أما العروبة**: المعنية هنا، فهي العروبة بالمعنى الحضاري والفكري ـ وليس العروبة بالمعنى العرقي والعنصري ـ فلقد غدت العروبة التي سبقت في تاريخها طور التغريب، وقد استوت في هذا الولاء والانتماء للعروبة بأولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية وغير عربية بالمعنى العرقي(١).

ويؤكد المنظور النسقي لهذه الظاهرة الحضارية أن العروبة رغم كل هذه التحديات التي مثلت عوامل وتحولات قامت في أرض الواقع، قد ظلت صامدة شامخة مستعصية على التحرك من موقعها الحصين، فليست

١ـ د. محمد عمارة: المرجع السابق ص ٣٦.

هي إذن "بالبناء الفوقي" الذي يصبه التغير بتغير الظروف، وإنما هي جوهر ثابت، كما هي نسق "عام وشامل" له صفة الاستمرارية، إنها "هوية" وليست مجرد تراث!

وجدير بالذكر أن هذه العروبة ليست خصوصية للأمة العربية، وإنما هي لازمة من لوازم الإسلام، فهي عروبة اللغة التي يستحيل على المسلم من أي جنس ،أو لون، أو قومية أن يفقه القرآن المعجز، فيبلغ في فقهه مرتبة الاجتهاد والتشريع دون أن يكون عربي اللغة، كما يستحيل على هذا المسلم، من أي لون أو جنس أو قومية أن يفقه علوم الشريعة الإسلامية وفي مقدمتها الحديث النبوي الشريف وعلومه، ومدونات الفقه الإسلامي وأغلبها عربي اللغة دون أن يكون هذا الفقيه عربي الثقافة.

فإذا لم تكن العربية شرطا في التدين بالإسلام، فإنها شرط للتفقه والاجتهاد فيه. هكذا نجد أن "العروبة" قرينة الإسلام "تنتشر بانتشاره وتزدهر بازدهاره، إذا لم تلق في طريقها المعوقات التي تستهدفهما معا. إنها عروبة الفكر والثقافة واللغة والحضارة تلك التي أثمرها الإسلام، وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها القاصرة"(١).

التدين:

يعد التدين ولا ريب، قسمة من القسمات العضوية والثوابت التي تكون جزءا من "هوية" هذه الأمة، ونحن بالطبع، لا نزعم أن أمتنا وحدها هي المتدينة من بين الأمم الأخرى. فالتدين ـ خاصة في الحضارة الغربية ـ قد توقف عند (الفرد) واقتصر على علاقة الفرد بخالقه، أما في حضارتنا الإسلامية، فلقد وجدناه يتعدى علوم الوحي والشرع إلى علوم الدنيا وفنونها، فهو الروح العامة السارية في كل علوم التمدن والإبداع الحضاري وتنمية العمران البشري، وليست محصورة فيما عرفته الحضارة الغربية تحت عنوان (اللاهوت)، فنحن أبناء "حضارة مؤمنة" ارتبطت فيها العلوم جميعا، بما فيها "العلوم البحتة" بالقاعدة الإيمانية، إنها "الحضارة المؤمنة" التي يذكر فيها اسم الله في كل شيء وليس في الصلوات فقط، تستفتح الأكل باسمه وتختمه بحمده، ونهل بذكره على الذبائح، ونلجأ إليه عند الحزن، وعند السرور، في وقت الضحك وساعة البكاء، فإن كل مسعى المسلم سواء أكان عبادة أو حتى ترويحا عن النفس، فضلا عن مباشرته متع الحياة المشروعة مبتغيا بها وجه الله (٢).

١ـ د. محمد عمارة: الهوية الحضارية مجلة الرافد ص٤.

٢ـ د. محمد عمارة: هويتنا الحضارية مجلة القافلة ج٤٤ ص١٠ أرامكو السعودية عام ١٩٩٦.

وفي ضوء هذا المنطلق الإيماني، يمكن القول بأن هذه الروح المتدينة ـ في حضارتنا ـ كان محورها ومزاجها هو (التوحيد) به تميز تدينها، وتميزت سماتها وقسماتها جميعا، حتى لنستطيع القول إن هذا (التوحيد) قد غدا (هوية) تتميز بها أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات(١) فالتوحيد الإسلامي الذي بلغ الذروة في النقاء والقمة في التجريد، عميق وقديم في المكونات الفكرية لتراثنا، حتى إن وثنية العرب القديمة في جاهليتهم التي سبقت الإسلام، كانت (انحرافا) عن جوهر ونقاء هذا (التوحيد)"ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله"(الزمر آية ٣). فهو إذن التدين، والتدين بروح التوحيد، من القسمات الثوابت، التي غدت في حضارتنا الإسلامية (هوية) تتميز بها هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات (٢).

الاعتدال:

يمكن القول بأن الاعتدال هو الذي جعل هذه الحضارة ـ وأمتها ـ ترفض (الغلو) بكل صوره، وفي كل الميادين، هو الآخر من القسمات التي غدت (هوية) نتميز بها عبر تاريخنا الحضاري الطويل. فهذا الاعتدال هو الذي جعلنا أمة وسطا، تقف موقف الشاهد الذي هو (عدل) بين ظالمين، وحق بين باطلين و(اعتدال) بين تطرفين.

وهذا الاعتدال هو الذي نسميه (الوسطية الإسلامية) تلك التي جعلها الله سبحانه وتعالى خصوصية هذه الأمة ـ أي "هويتها" وصفة من صفاتها المميزة لها. "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس" (البقرة آية ١٤٣).

وفي هذا السياق الحضاري، فإننا إذا قلنا : إن هذه "الوسطية الإسلامية" قد غدت لمركزها ومركزيتها في القسمات ـ جماع "الهوية الإسلامية" وزاوية الرؤية الصحيحة والوحيدة، لكل من أراد إدراك حقيقة السمات التي تميزت بها حضارتنا، أي إدراك حقيقة جوهرها و(هويتها) كما غدت معيار تقدم الأمة ـ يوم سادت ـ

١ـ مصطفى محمد طه: الهوية بين الشكل والمضمون ص ١٩٢، ١٩٣ مجلة التسامح العدد٤ خريف ٢٠٠٤.

٢ـ د. محمد عمارة: الهوية الحضارية ص٤٢ـ ٤٣. وانظر د. بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة ..رؤية نقدية. كتاب الأمة العدد ٨٦ قطر عام ٢٠٠١م.

وتألقت في إبداعها الحضاري وسبب تراجعها وجمودها وتخلفها عندما أخلت مكانها للغلو والتطرف، ذات اليمين أو ذات الشمال.

تلك كانت بعضا من السمات الثوابت، التي تكون الهوية الحضارية لأمتنا عبر تاريخها الحضاري، والتي ينبغي أن تكون بمثابة سمات وقسمات بارزة في مشروعها الحضاري للنهوض المعاصر المنشود، على حد تعبير الدكتور محمد عمارة.

ومن هنا نرى أن الهوية الإسلامية، قد بلورت إلى حد كبير الملامح البارزة لوجود هذه الأمة المتمايزة في أصالتها القرآنية ووسطيتها الحضارية، ولقد تجسدت القسمات البارزة، لهذه الهوية تجسيدا حيا، عبر مسار الوجود الحضاري الإسلامي، عندما نزل سفير السماء، سيدنا جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلب رسولنا الأكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ (الحنيفية السمحاء). وكانت أول آية في هذا الكتاب الخالد "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" (العلق آية ١ ـ ٥).

ومن هنا انبجست من ضمير الغيب أمة وسط ذات هوية متميزة ومن ثم فهي باقية بقاء هذا الكون. وفي ضوء هذا المنطلق الرشيد، يمكن القول بأن تأكيد الأصالة الحضارية للأمة، إنما يعني ضمن ما يعني أن تكون حياتنا كمسلمين ـ سواء في بعدها العقدي الحضاري ـ مصاغة في لحمتها وسداها، وفقا للنسق القرآني المعجز، الذي قدم عبر معطياته التأطير الأمثل لحياة أمتنا وسط الأمم قاطبة.

وذلك لأن الانتماء يمنح الفرد غايته وأمل حياته عبر المسؤولية عن هوية الجماعة، واستمرارية أنماط تراثها المختلفة، المادية والروحية، والأمل في أن جهوده الإبداعية والوجودية لن تذهب هباء بموته، بل ستغذي حياة الجماعة حتى بعد وفاته.

ومن يكون لديه الارتباط بهويته على هذا النحو، لا يتصرف وفقا لقانون المصادفة، لأن الفرد الذي يتصرف وفقا لهذا القانون، يكون مفتقدا للهوية ومفتقدا للانتماء ومحكوما عليه بأن يعيش حاضره فحسب، لفترة السنوات التي تحدد له أن يحياها على الأرض، وينغمس في هذه الحالة، فالإنسان الذي يحدث لديه نوع

من الخلل في استيعاب الرسالة المشفرة الخاصة بمجتمعه، فإنه عادة ما يعاني من الحيرة فيما يتصل بهويته الذاتية(١).

ومن هنا لا يكون غريبا أن نجد الباحث "مصطفى محمد طه" (٢) يرى أنه في التحليل الأخير، أن حديث الهوية ولا سيما في هذه الأيام، حيث إن أمتنا الإسلامية تقف في مفترق طرق، بمثابة رد موضوعي على هؤلاء الذين يعيشون حالة السقوط الحضاري، فضلا عن شعورهم بالتأزم تجاه الآخر، وبناء عليه، فإننا نأمل أن نتمكن جميعا من رسم ملامح المشروع الحضاري الإسلامي، الذي أصبح ضرورة عصرية وفقا لقناعة إيمانية، وذلك حتى تعود لأمتنا الريادة الحضارية، كما كان العهد بها من قبل فضلا عن الشهود الحضاري على الآخرين.

الوضع العالمي الجديد:

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يتشكل في العقود الأخيرة عالم جديد خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي واختفاء الكتلة الاشتراكية، فظهر ما يعرف "بعولمة الاقتصاد" Globalisation، ولعل نقطة البدء هنا ضرورة إدراك ما يدور على الساحة الاقتصادية العالمية سواء من ناحية تطور العلاقات الاقتصادية الخارجية، أو من ناحية التطور التكنولوجي ومقتضيات الصناعة الحديثة ـ ونحن نعلم مدى تأثير الاقتصاد والتكنولوجيا على النواحي السياسية والثقافية للأمم والشعوب ـ (٣).

ولم يعد الأمر يقتصر على مجرد علاقات اقتصادية بين الدول، بل إننا بدأنا عصر الاقتصاد العالمي، فالصناعة الحديثة لا تتميز فقط بإمكاناتها التكنولوجية والتسويقية العالمية، وإنما باتجاهها العالمي في كافة مراحلها، فالصناعة الحديثة عالمية بطبيعتها سواء في توجهها نحو السوق العالمي أو في نشاطها الإنتاجي واعتمادها المتزايد على مستخدمات الإنتاج من مختلف أجزاء العالم.

وقد صاحب هذا التطور في طبيعة الصناعة الحديثة، واتجاهها إلى العالمية أن ظهر دور متميز لعدد من الوحدات الانتاجية العملاقة ـ ما يطلق عليه الشركات متعددة أو عابرة الجنسيات ـ والتي تتحكم في تكنولوجيا

١ـ د. رشاد عبد الله الشامي: ص٧ـ ٨.

٢ـ مصطفى محمد طه: الهوية بين الشكل والمضمون ص ١٩٤.

٣ـ انظر د. سعيد حقي توفيق: النظام الدولي الجديد، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٩٩م.

الصناعات، وتباشر سياسات واستراتيجيات صناعية عالمية تجاوز الحدود السياسية. وسيطرة هذه الوحدات على عدد من الفروع الانتاجية الأكثر تقدما هي أحد مظاهر العصر الحديث، بحيث أصبح من الصعب ولوج بعض هذه الصناعات دون قدر من التعاون أو التنسيق مع هذه الوحدات الانتاجية العالمية (١).

فالتكنولوجيا تتجه لتصبح عالمية، ترتبط بعدد من الوحدات الانتاجية العملاقة التي تعمل في تعاون أو تنافس على مستوى العالم أجمع.

ولا يقتصر الاتجاه إلى العالمية على هذه النواحي التكنولوجية وما ارتبط به من دور متزايد تلعبه هذه الوحدات الانتاجية العالمية (الشركات عابرة الجنسيات)، بل إن اتجاهات العالمية تفرض نفسها على مختلف نواحي الصناعة الحديثة، سواء من حيث الاتجاه المتعاظم نحو توحيد وتنميط المواصفات العالمية، أو المقاييس الفنية، ونفس الاتجاه نلاحظه فيما يتعلق باتجاهات الذوق، بحيث نكاد نلمح مولد المواطن العالمي.

كذلك فإن النظم القانونية للمعاملات لم تعد دائما نظما وطنية، فقد ظهر نوع من القواعد العالمية لتنظيم العديد من المجالات في البيوع الدولية، والاستشارات، والعقود الدولية، كما ازداد الاعتماد على قواعد التحكيم الدولي في العديد من المعاملات. وهكذا بدأ يظهر نوع من قانون المعاملات الدولي لتنظيم العديد من الأنشطة. وقد جاء إنشاء منظمة التجارة العالمية في إثر جولة أورجواي لاتفاقية الجات، لتأكيد هذا الاتجاه لتنظيم وضبط المعاملات الدولية في مجال تجارة السلع والخدمات والاستثمار والملكية الفكرية، ونلاحظ أن التعاون الدولي بين الدول الصناعية ـ مجموعة السبعة أو مجموعة الدول العشر الصناعية ـ تكتسب أهمية متزايدة في تحديد أوضاع الاقتصاد العالمي.

ولا ننسى ذلك التغير الهائل الذي حدث منذ الثمانينات، فقد كان تغيرا نوعيا في الصناعة والتكنولوجيا المستخدمة. وكما تجري المقابلة في الفلسفة بين الروح والمادة، فإننا نستطيع أن نجد مقابلة أخرى في عالم التكنولوجيا والانتاج، وهي المقابلة بين الطاقة والمعلومات (او بين العضلات والعقل) ·والجديد في ثورة المعلومات هو بروز أهميتها في مختلف صور الانتاج وفي الكثير من مجالات الحياة. وقد حدث نوع من التلاقي بين تكنولوجيا الحاسبات الإلكترونية من ناحية، والاتصالات من ناحية أخرى نتيجة للتطبيقات المتزايدة للسليكون.

١ـ د. حازم الببلاوي " على أبواب عصر جديد ص ٩ ،١٠ دار الشروق، مصر عام١٩٩٧م.

إن تكنولوجيا المعلومات هي التي توصل المراكز بـالفروع وتقيم حلقـات الوصـل بـين كمبيـوتر وآخـر وبـين مستخدم وآخـر، إنهـا وسيلة كسـر حـواجز الزمـان والمكـان، والأداة العمليـة للمشـاركة في المـوارد resource sharing وتنمية الرغبة في التواصل، إنها أكثر الوسائل فاعلية لكسر مركزية المعلومات وجعلها أكثـر ديمقراطيـة وجماهيرية، وهي التي أعادت للمستخدم النهائي حقوقه وهيبته.

وكذا غيرت الاتصالات وجه العالم، وما نسمعه حاليا عن الكونيـة العاليـة مـا هـو إلا صـدى مـن آثارهـا العديدة، إنها تكنولوجيا المعلومات التي جعلت من فرق التوقيت بين بورصـة طوكيـو وبورصـة نيويـورك فرصـة يستثمرها البعض ماديا، وجعلت من سرعة تحويل النقد مـن بنـك لآخـر مؤشـرا مهمـا لقيـاس الأداء الاقتصـادي للدولة.

لقد استخدمت التكنولوجيا الإلكترونية في عمليات التحويل Switching والارسـال Transmission. وقد حققت هذه التكنولوجيا تقدما كـبيرا مـع ظهـور الخيـوط البصـرية Optical Fibres وغيرهـا. وهكـذا تقـوم تكنولوجيا المعلومات على تضافر ثلاثة ميادين صناعية هي: الإلكترونيات Micro-eelectronics، والاتصالات Communica Tions، والحاسبات الإلكترونية Computers.

ولعل أهم ما ترتب على هذه الثورة الجديدة في المعلومـات والاتصـالات هـو مـا نـتج عـن ذلـك مـن تقـارب واندماج بين مختلف أجزاء العالم، حتى بات البعض يتحدث عن القرية الكونية او العالمية Global Village، وإذا كان انتشار شبكات التلفزيون العالمية على مختلف البقاع حتى أضـحى الـبعض يعتقـد أن شـبكة التلفزيـون CNN وغيرها من الشبكات تلعب دورا يكاد يعادل دور اللاعـبين التقليـديين في الحيـاة الدوليـة مـن حكومـات وأحزاب أو برلمانات. وجاءت شبكة الإنترنت Internet لتمثل وسيلة جديدة لا مركزية للتخاطب والتحاور بين الأفراد والمؤسسات خارج الحدود وعبر القارات، وعن طريقها لا يتم فقط تداول المعلومـات والمعرفـة والمراسـلات، بل أيضا أصبحت سوقا للتعاقد بين البائعين والمستثمرين من مختلف بقاع العالم. ويكفي أن ننظر إلى النمو المذهل في عدد وحجم المتعاملين مع الـ Internet لندرك إلى أي حد بدأنا ندخل عصر العالمية، وحيث تتـوارى الحـدود السياسية والجغرافية.

والجديد هو أن الثورة الجديدة في المعلومات والاتصالات قد ولدت ثورة مقابلة وهي "الثورة المالية" فالأصول المالية لم تعد متداولة فقط بشكل مادي في البورصات، وإنما أصبحت تنتقل عبر شاشات الحاسبات الإلكترونية من دولة إلى دولة في لمح البصر.

وتمكن المستثمر أمام شاشته من الملاحقة الدائمة واللحظية لكل ما يحدث في الأسواق العالمية لتداول الأصول المالية والنقدية. وبذلك تحققت وحدة الأسواق المالية العالمية على نحو لم يتوفر في الأسواق الأخرى. فارتبطت بورصات نيويورك ولندن وطوكيو وغيرها من البورصات في شكل شبكة متكاملة ومتصلة، تعمل على مدار الساعة وعلى اتساع العالم(١).

وارتبط بتلك الثورات التكنولوجية والمعلوماتية والمالية، ثورة أخرى نفسية قد لا تقل عمقا وتأثيرا، وهي "ثورة التطلعات" فالجميع يتطلع إلى مستويات المعيشة، وظروف الحياة في الدول الأكثر تقدما ويأمل في أن يصل - وبأسرع وقت - إلى المشاركة في مثل هذه المستويات المعيشية، وبقدر ما فتحت "ثورة التطلعات" الأمل نحو المستقبل بقدر ما أثارت - وخاصة في معظم الدول النامية - الشعور بالإحباط واليأس نتيجة العجز عن ملاحقة هذه المستويات العالية لظروف الحياة.

ولذلك يقول الباحث حازم الببلاوي (٢) سوف يكون من المبالغة الاعتقاد بأن اتجاهات العصر تنحصر فقط في الاتجاه نحو العولمة والنمطية والتوحيد، بل إن الحقيقة أن هناك اتجاهات أخرى معاكسة تماما تبرز خطورة وأهمية الخصوصيات والرغبة في التقوقع والانعزال، بل والانفصال. فالاتجاهات الإثنية والطائفية لم تلبث أن تعرضت لهزات عنيفة - بشكل مباشر وغير مباشر - نتيجة لانتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفييتي، في الوقت الذي عرفت فيه إفريقيا حروبا أهلية دموية بين القبائل والمقاطعات.

كذلك فقد صاحب هذا التطور في حقائق الاقتصاد والتكنولوجيا - وربما ارتبط به - تطور آخر على المستوى السياسي وخاصة في الدول الصناعية المتقدمة، فمع زيادة وعي الأفراد في هذه الدول ومع تزايد أساليب الانصالات والمعلومات فقد أصبح تأثير الرأي العام - من خلال أستطلاعات الرأي العام - أشد وضوحا وأمضى

١- انظر د. نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، عالم المعرفة، العدد١٨٤، الكويت عام ١٩٩٤م.

٢- د. حازم الببلاوي: على أبواب عصر جديد ص ١٦ - ١٧، السابق.

تأثيرا في قرارات السياسيين.

ولا ننسى أن الثورة التكنولوجية قد أدت إلى زيادة قدرة الأغنياء وسيطرتهم الاقتصادية على الدول البعيدة دون حاجة إلى الاستيلاء المادي على الثروات الطبيعية البعيدة. كما مكنت - من ناحية أخرى - سكان المناطق الفقيرة والمحرومة إلى التطلع إلى المستويات الأعلى، ووفرت لهم أساليب الانتقال الرخيص إلى الدول الصناعية.

ومن هنا ظهرت الحاجة لدى الفئات المحظوظة في الدول المتقدمة إلى المطالبة بالحصار، ووضع أسباب العزل الصحي بل والرغبة في الانعزال وعدم الانزعاج بمشاكل الفقراء والمحرومين. وقد ساعد انتهاء الحرب الباردة والمنافسة بين الكتلتين الغربية والشرقية على تخفيف الحاجة إلى كسب رضاء الدول الفقيرة في الصراع العالمي.

وليس الأمر - كما يذكر الدكتور حازم الببلاوي - أفضل حالا في الدول النامية، فقد كانت نتائج الثورة التكنولوجية في بعض الأحوال وبالا على شعوب هذه الدول. التقدم التكنولوجي الذي عرفته هذه الدول ليس وليد إبداع بقدر ما هو سلعة مستوردة. وقد يتم استيراد نتائج هذا التقدم في مجتمع مهيأ لاستيعاب نتائجه فيؤدي إلى مزيد من التسلط والقهر بدلا من أن يؤدي إلى مزيد من التحرير والإبداع. فقد تمكنت نظم بالغة التخلف الحضاري من التسلط على الشعوب نتيجة لما توافر لها من إمكانيات في السلاح وفي أساليب الاتصال والمعلومات والتأثير المعنوي مما مكنها من التسلط على شعوبها على نحو ما كان يمكن أن يتحقق في غيبة هذه الإمكانيات المادية المستوردة.

وقد تفيد هنا الاشارة إلى أن إحدى نتائج الثورة التكنولوجية كانت تضاؤل الأهمية النسبية للموارد الطبيعية، نظرا لظهور العديد من المواد المخلقة Man-made من ناحية، وزيادة أهمية المعرفة في الانتاج Science Knowelge intensive من ناحية أخرى، كل هذا ساعد على شيوع الشعور بتضاؤل أهمية الدول النامية لدى الكثير من قطاعات الدول الغنية التي لا تكاد ترى في غير التعامل فيما بينها من فائدة كبيرة ترتجى.

ولذلك فقد كانت إحدى نتائج التفاعل بين التطور التكنولوجي من ناحية، وزيادة تأثير الرأي العام في القرارات السياسية من ناحية أخرى، أن تغلبت النزعة الفردية، والمصلحة المادية المباشرة على سلوك الأفراد

والجماعات، فتراجعت قيم الوطنية، والشرف، والتضحية والمجد، وتقدمت نزعات الاستهلاك المادي والمتعة المباشرة، وقد يكون من دواعي السخرية أن ثورة المعلومات، والتي-أدت إلى زيادة الاتصال والمعرفة بين مختلف الأفراد في بقاع العالم المتنوعة، قد ساعدت أيضا على تأكيد هذا المزاج العام نحو الانعزال والفردية بل والأنانية.

فحين ننظر إلى وسائل نشر المعلومات، وإزالة عقبات الزمان والمكان نجد أنها تجمع في الوقت نفسه بين توفير مزيد من المعرفة واتساع الخيال والوعي من ناحية، وبين الانعزال والوحدة من ناحية اخرى. فالكثير من منجزات الثورة التكنولوجية فتحت حقا الآفاق أمام الفرد حيث ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة وسهولة، ولكنه يجد نفسه وحيدا في سيارته الخاصة، او في رحلة سريعة بالطائرة تتيح له بالكاد فرصة الحديث مع الآخرين قبل أن تعلن المضيفة ضروة ربط الحزام استعدادا للهبوط.

وانظر إلى التلفزيون مثلا، وقد أصبح الأداة الرئيسية لنقل المعلومات، فهو يضع تحت نظر الفرد ـ في لحظات ـ كل ما يحدث على اتساع المعمورة من أحداث سياسية، أو اقتصادية، او اجتماعية، أو رياضية، ولكن ذلك لا يتحقق عادة إلا وهو وحيد في غرفته دون أي تفاعل إنساني مع الغير.

وقل مثل ذلك عن الكمبيوتر أو Intermt، فهي تفتح أمام الفرد إمكانيات غير محدودة من المعرفة والمعلومات في مختلف أرجاء المعمورة، وهو يحصل على كل هذه المعلومات وهو وحيد منعزل أمام شاشته دون أي اتصال إنساني مباشر. وهكذا أدت منجزات الثورة التكنولوجية إلى توسيع آفاق الفرد وإزالة حواجز الزمان والمكان في نفس الوقت الذي زادت فيه وحدته وعزلته.

الإسلام والحوار الحضاري

إن الحوار في معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدي إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين الأطراف، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر. وبهذا المعنى فإن الحوار يعني التسامح واحترام حرية الآخرين واحترام الرأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به.

وليس الهدف من الحوار مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفكر، وترسيخ قيمة التسامح بين الناس، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التي تشكل الأساس المتين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب. والحوار بهذا المعنى يعد قيمة حضارية ينبغي الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات.

ولا جدال في أن الحوار قد أصبح في عصرنا الحاضر أكثر إلحاحا من أي وقت مضى، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر، وليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة. وإذا كانت بعض الدول في القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلا من اللجوء إلى الحوار، فإن على المجتمع الدولي أن يصحح الأوضاع ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضاري في التعامل مع الحوار. فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار.

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف ـ الذي أشارت إليه الآية الكريمة "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" (الحجرات آية١٣) ـ بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان، على الرغم من الاختلاف فيما بينها ـ كانت دعوة الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة في قوله تعالى: " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون" (آل عمران آية ٦٤).

ولم يكتف القرآن الكريم بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذي ينبغي اتباعه في مثل هذا الحوار. وذلك في قوله تعالى :"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"(العنكبوت آية٤٦).

أما الحكم على الآخرين الذين يشاركوننا في الإنسانية فيجدر بنا أن نتركه لله جل شأنه. وخير لنا بدلا من ذلك أن نجتهد في أن نسلك حيالهم مسلكا عادلا متسامحا طالما لم يسيئوا إلينا. فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التي نتحمل نحن مسؤوليتها. ولهذا يقول القرآن الكريم في موضع آخر: "وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير"(الشورى آية ١٥).

أهمية الحوار: يجب الأخذ في الحسبان أن حياة البشر وتحضرهم تطور في ضوء الحوار، وبه تستمران فالحوار من هذه الزاوية لم يُعرف وكأسلوب لحل النزاعات فحسب، وإنما عُرف كأسلوب مبتكر في اكتشاف سُبل تحسين ظروف الحياة. كما أنه يمكن القول إن"حوار الحضارات" في التاريخ البشري قد استفاد من المجالات والتجارب الدينية. وتستبطن هذه الفائدة النجاح النهائي لإرادة الحوار.

فضلا عن حاجة البشرية الذاتية إلى الحوار، والارتباط العاطفي بين الجنس الواحد، الذي يؤدي إلى تحقيق الذات الفردية والجمعية، فإن الحوار توجهه ضرورات أكثر تحديدا، ذلك أن انجذاب الناس إلى النصوص القديمة وإلى النصوص الدينية، واهتمامهم بالمحصلات العلمية من مظاهر الضرورة الوجودية لممارسة الحوار، فهذه النصوص والأدبيات العلمية في مجال الالتزام بالبحث عن الحقيقة، وعن السعادة الإنسانية، والأخلاق وتحقيق العدالة، تطرح بواسطة الحوار، ولها تأثير عميق في الاهتمام بالحوار والعلاقات الإنسانية.

إن ما يجعل الحوار ضروريا اليوم، يعود إلى عدد من المسائل الهامة(١):

أحدها: إن تنوع وسائل الاتصال العالمية، واختصار المسافات الزمنية في العلاقات الإنسانية، استوجب أن تتزايد الرغبة في تبادل الثقافات واختصار المسافات المكانية. إن وجود هذه الرغبة حوّل في حد ذاته عالم اليوم

١ـ انظر د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، كتاب الأمة العدد ٨٠ قطر ١٤٢١هـ.

وانظر د. بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، الصدر للطباعة والنشر، القاهرة عام ١٩٩٢م.

إلى شبكة تعنى بالمسؤوليات العالمية، وتحتاج إلى تعاون دولي لأداء هذه المسؤوليات. ولا شك في أن توزيع المسؤوليات، يتم في ضوء فهم الأمم لبعضها بعضا فهماً أكبر ومتابعة جوانب قضية "حوار الحضارات".

وإذا كان السياسيون وأصحاب النفوذ هم الذين يحددون حتى الآن تقارب الأمم والشعوب أو تباعدها، فإن المؤسسات الاجتماعية تريد الآن من أصحاب النفوذ أن لا يحرموها من إمكانات التقارب.

إن أهم معيار عيني لضرورة "حوار الحضارات" يجب أن يبحث عنه في صميم العالم وعزمه على تجاوز مصائب القرن العشرين ومآسيه وحرمانه، بالاعتماد على مساعدة جميع الأوساط الثقافية، وإذا كانت الحربان العالميتان اللتان قادتهما الدول العظمى قد انقضتا، فإن الرأسماليين الإمبرياليين الفالتي الزمام، قد حمّلوا البشرية المعاصرة مخاطر الحرب الباردة، وتدمير البيئة، ووضعوا العالم في خوف دائم من مخاطر اشتعال حرب جديدة، لذا فإن العبور من هذا الوضع ـ كما نتصور ـ هو في أن تنجو الثقافات المختلفة من لعبة القوة، وتستطيع من خلال الحوار أن تنتج قيما جديدة تسيطر على العلاقات الدولية.

ولا مرية في أننا نحن ـ المسلمين ـ من دعاة الحوار، لا انطلاقا من مواقف آنية، ولا استجابة لظروف وقتية، ولكن لأن مبادئ ديننا الحنيف تدعو إلى ذلك، وتحث عليه، تجسيدا لوحدة النوع الإنساني، وترسيخا لمبدأ سواسية الناس في الخليقة، وتحقيقا لإرادة الله عز وجل في جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، ذلك التعارف غير المقصود لذاته، وإنما لما يثمر من تعاون لخير الجميع.

إذ التمايز ـ في رأينا ـ هو تمايز تناقض. ولكن يجدر بنا أن نحدد ـ قدر الإمكان ـ معنى المصطلحات التي نستعملها، لأن كثيرا من الالتباس المؤدي إلى الاختلاف ناتج عن الخلاف حول دلالات المصطلح، وإن المسألة لا تنحصر في حدود فقه اللغة، بل تتجاوزها إلى أبعاد سياسية وثقافية وإيديولوجية.

فما المقصود ـ إذن ـ بالحضارة وعلاقتها بالثقافة وبحوار الحضارات؟

إن الثقافة في أدنى مستوياتها هي مجموع الاستجابات والمواقف التي يوجه بها شعب من الشعوب، ضرورات وجوده الطبيعي من مأكل وملبس وتناسل، أما على المستوى الأرفع فإن للثقافة أوجها ثلاثة هي:

تنمية الفكر وترقية الحس النقدي، وتكوين الحس الجمالي وإرهاف الذوق، والاستمساك بالقيم وغرس الحس الأخلاقي. وإذا كان مفهوم الثقافة ينزع إلى الخصوصية، فإن الحضارة تنزع إلى العمومية. فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم، لا يشاركها في شأنها أحد، تحمل صيغة هذه الأمة وتتسم بسماتها، ووراء كل حضارة دين، وقد تصب عدة ثقافات في نهر حضاري واحد.

فالثقافة العربية التي ننتمي إليها هي في أدنى مستوياتها مجموع تقاليدنا وعاداتنا، أما في مستواها الأعلى فهي النهج الذي نهجه الغزالي في الجانب الروحي، وابن رشد في الجانب الفكري، وابن حزم في الجانب الأخلاقي، وابن خلدون في الجانب الاجتماعي. ونشكل ـ نحن العرب ـ بثقافتنا مع ثقافات أخرى ـ الفارسية والتركية ـ أقول نشكل الحضارة الإسلامية التي ساهمنا جميعا في إنشائها وإثرائها.

إن هذه الحضارة الإسلامية التي سادت الكون بالعلم والعقل والعدل في نهاية الألفية الأولى من التقويم الميلادي، عرفت بعد ذلك فترة انحدار دامت قرونا، وهي اليوم ونحن على أبواب الألفية الثالثة ـ تواجه أزمة مزدوجة، فهي تبحث ـ من جهة ـ عن مشروع نهضوي لتعيش العصر، وهذا لن يتأتى بالقطيعة والجهل، ولكن بالحوار والفهم(١).

وتعاني ـ من جهة أخرى ـ عداء للحضارة الغربية التي بدأت ـ منذ انهيار الشيوعية ـ تزعم وجود خطر من الإسلام، وتريد أن تصرف مشروعنا النهضوي عن مرجعيته الإسلامية برفع شعارات خلابة مثل الحداثة التي في رأيها قطيعة مع العروبة والإسلام، أو بالتركيز على تاريخ ما قبل الإسلام كإبراز الفرعونية في مصر، أو الآشورية في العراق، أو الفينقية في لبنان، أو البربرية في المغرب والجزائر.

لقد كان الحوار دائما المبدأ الأساس في معاملة المسلم لغيره، إنه حوار يقوم على المجادلة بالتي هي أحسن، وعلى الإقناع بالمنطق السليم الذي لا يستسيغ الربط بين الحضارة والصدام ،لأن الصدام يجب أن لا يكون مبادرة المسلم، فهو يؤدي إلى الدماء والدمار، بينما الحضارة معناها العمران والسلام(٢).

١ـ د. بركات محمد مراد: العولمة وصراع الحضارات، الوعي الإسلامي العدد ٤٦. الكويت يناير٢٠٠٤م.

٢ـ د.أحمد طالب الإبراهيمي: حوار الحضارات، مجلة العربي العدد ٤٧٧ الكويت أغسطس ١٩٩٨.

الإسلام والتعددية:

والإسلام في الحقيقة يسمح للمسلمين بالتعددية، من حيث تفاوت الناس في الرؤية والإدراك، واختلاف المنظور، ولذلك يعتد الإسلام بمسألة الاجتهاد، ويشجع عليها، ويحث في طلبها من كافة المسلمين. ومسألة "التعددية" التي تعني الاختلاف في الأصل الإسلامي(القرآن والسنة) تظهر في مستويين، كمنظومة من المبادئ والاعتقادات وسواه من المنظومات الدينية وغير الدينية، هاهنا نواجه وضوحا مقطوعا به حين يعلن القرآن الكريم أن الله ذاته لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة، بمبادئ عامة واحدة، وبأفهام متماثلة وبمصالح متطابقة، ويقدم فخر الدين الرازي تعليلا دقيقا وطريفا لهذه"المشيئة الربانية" فيقول: "لو كان القرآن محكما بالكلية لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى هذا المذهب وذلك ما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله والنظر فيه"(١).

ونحن نرى تلك الاختلافات ضمن الإسلام ذاته ماثلة في مصدرين اثنين: واحد معرفي يتجسد في درجة التقدم المعرفي العلمي لدى المسلم صاحب العلاقة، وآخر يتجلى في المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها في حياة هذا الأخير. وفي هذا السياق، يرى "طه حسين" أنه لا غرابة في أن تختلف مذاهب القوم في القرآن باختلاف الموضوعات وباختلاف المقامات أيضا إنما الغرابة في مذهب واحد"(٢).

ولعلنا نورد في هذا الحقل أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يأخذ على الصحابي ابن عباس أنه يحاجج خصومه (أي خصوم علي) بالقرآن، ويدعوه إلى غير ذلك: "فخاصمهم ولا تحاججهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة"(٣).

أما المستوى الثاني فيعلن عن نفسه في العلاقة بين الإسلام وغيره من الأديان والمذاهب، فإذا كان المستوى الأول يتعلق بالنسق الواحد ذاته، بحيث يظهر حوارا مع الذات، فإن المستوى الثاني هو بمثابة حوار بين الذات والآخر،وهنا يلح القرآن الكريم على أن ما يحتكم الناس إليه هو العقل هو نفسه المعيار المنهجي لصداقية الآخر،

١ـ فخر الدين الرازي: التفسير ج٢ ص ١٠٧.

٢ـ طه حسين: مرآة الإسلام ج٤ ص ١٠٥ القاهرة عام ١٩٥٦.

٣ـ السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج١ ص ٥١، بيروت عام ١٩٧٣م.

وبذلك تبرز الدعوة لحوار عقلي مع الجميع للوصول إلى "كلمة سواء" تلتقي عليها الأطراف المتقاطبة.

فمعرفة الاختلاف والإقرار به يمثلان مدخلا إلى الحوار، على أساس من الندية والاحترام، وحيث يظهر الرشد من الغي، يغدو لزاما على الجميع أن يقروا بالنتائج الصائبة، ويدفعوا بها إلى الأمام في سبيل تقدم البشرية ونمائها، ولما كان التقدم في العلم، والمعرفة مفتوحا، فقد يفيد على من قارب الصواب والحقيقة في مرحلة أو لحظة ما من التاريخ أن يدقق ثانية في مواقفه عمقا وسطحا؛ إذ لعلها أو لعل بعضها قد جرى تجاوزه وغدا غير قادر على الاستجابة لمقتضيات ذلك التقدم، دونما عنت أو تشدد أو ممانعة "ذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن" في ضوء مبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان (١).

وإذا ميزنا بين الإسلام و(الفكر الديني) فقد تعين على منتجي هذا الأخير من مفكرين وفقهاء ومجتهدين أن يكونوا أكثر تواضعا في إنتاجهم الفكري، إذا كان أسلافهم رجالا، فهم كذلك رجال، لا يصح وضعهم فوق الشك المعرفي والنقد والمراجعة، بل هنالك من يرى ضرورة النظر العقلي النقدي لكل ما يصدر عن"الدين" و"الفكر الديني" بهدف التعميق أولا، وتقريبه من الآخر بكيفية عقلية مرنة ثانيا.

لكن واقع الحال التاريخي أدى إلى نشوء أوضاع اجتماعية وسوسيوثقافية وأخلاقية ومعرفية أسهمت في تراجع الإبداع العقلي في النظر إلى العلاقة بين الأحادية والتعددية، وكان ذلك بمثابة التأكيد المضخم على الأحادية على حساب التعددية، مما أوقف عملية ضخ الدماء النقية والاستفزازات المحفزة على التجدد وإعادة النظر والبناء: لقد رُفض الاختلاف في الرأي ضمن الإسلام ذاته، وترهل الحوار بين الإسلام والآخرين من دعاة التيارات السوسيولوجية والفلسفية والأخلاقية، بل لعله تحول أحيانا إلى صراع مفتوح قطفت ثماره العجفاء نُخب فقهية دينية وأخرى علمانية، حيث حولته إلى فزّاعة في وجه القوى المستنيرة الحية في الوطن.

ويرى الباحث"الطيب تزيني"(٢) أن ثمة مسألة ذات مساس مباشر وعميق بمحور العلاقة بين الأحادية والتعددية في الإسلام، وهي مسألة القراءات المتعددة أو التعددية القرآنية فمن موقع كون النص القرآني قائما على

١- د. الطيب تزيني: الإسلام بين الأحادية والتعددية ص ١٠٩، ١١٠ مجلة التسامح العدد ٤ - ٢٠٠٤.

٢- المرجع السابق ص ١١٠، ١١١.

بنية تستدعي التأويل في أحوال غير ضئيلة، بل تطالب كذلك بالتوجه إليها بتأويلها كي تفهم مقاصدها الدقيقة (١)، فإن احتمال نشوء عدة قرارات لمسألة واحدة أصبح واردا، وهنا يصح القول بأن كل القراءات التي تنطلق من الإسلام ويعلن أصحابها انتماؤهم له، تمتلك حدا معينا من الشرعية النصية، بمعنى أنها تجد في الإسلام عموما وفي النص القرآني بنحو خاص مرجعيتها، وهنا لا تصح المفاضلة بينها.

ولكن تلك القراءات إذا ما وضعت في مستوى النظر الإبستيمولوجي(المعرفي التأسيسي) فإنها تجد نفسها أمام السؤال التالي: أي منها لديه القدرة على تحقيق الاستجابة لحياة الناس المادية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها؟

ها هنا نجد أنفسنا أمام سؤال المصداقية المعرفية والاجتماعية والتاريخية، وهنا تبرز الأفضلية بين تلك القراءات، وإذا قلنا، إن قلة من هذه الأخيرة - استجابة لتلك المصداقية - هي التي ترفض التعددية لصالح أحادية قطعية وحيدة الجانب ومفعمة بالتكفير والتشدد ورفض التسامح في حين أن أكثرها استجابة للمصداقية المذكورة هي التي تنظر إلى الأحادية والتعددية من حيث هما وجهان اثنان لموقف واحد مؤسس على العلم واحترام الآخر من كل الأطراف، وعلى التسامح والدعوة المفتوحة لحوار عقلاني ديمقراطي مستنير(٢).

الإسلام والتسامح: ومن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية في أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلا يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابي بين الشعوب. فقد خلق الناس مختلفين"ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك"(هود آية ١١٨ - ١١٩) كما يقول القرآن الكريم.

ولكن هذا الاختلاف بين الناس في أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينفي أن يكون منطلقا أو مبررا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب،بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعا إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش وإثراء الحياة، والنهوض

١- يتضح ذلك خصوصا من (آية التأويل) التي يبرز التأويل فيها طابعا إشكاليا بسبب الاختلاف في إعراب حرف (الواو) فيها: "لا يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا "، انظر حول ذلك د. طيب تزيني: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءات، ص ٢٣٥ - ٢٦١ دمشق دار الينابيع عام ١٩٩٧م.

٢- انظر حول كيفية تصيير الشريعة معرفة مؤرقة حافزة على التقدم عموما:

De Boer Geschichteder philosomhie im islam, Stuttgart, 1951, p.40

بها. ومن هنا يقول القرآن الكريم: "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"(الحجرات آية ١٣). والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون في جميع الأحوال وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار. فكانت اللغة التي يمكن أن يتخاطب بها الناس ويعبّروا بها عن أغراضهم وأفكارهم. ويعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوبا راقيا للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار التي تؤدي إلى تبادل المنافع فيما بينهم.

ولا يجوز أن يؤدي الخلاف في الرأي أو في الفكر أو في الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات. وهذا ما يعبر عنه القول المشهور: "الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية". وكما أعطي لنفسي الحق في أن يكون لي رأيي الخاص ووجهة نظري المستقلة، فكذلك ينبغي أن أعطي الحق ذاته للآخر. فمن حقه أيضا أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف. فكل فرد في هذا الوجود له شخصيته المستقلة. وقد أعطانا الله رمزا بهذا الاستقلال يتمثل في عدم اتفاق بصمة فردين في هذا الوجود مع بعضهما. فالخلاف في الرأي إذن شيء طبيعي وليس شاذا(١).

ومن هنا فإنه لا ينبغي أن يضيق المرء صدرا بالآراء المخالفة لرأيه، ليس فقط في مجال الأمور اليومية العادية، بل حتى في أمور الدين والفكر والسياسة. فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدعي لنفسه أنه وحده الذي يملك الحق المطلق وأن غيره يقف في الطرف المقابل الذي يتساوى مع الباطل. وقد عبر الإمام الشافعي عن هذا المعنى في تسامح رائع قائلا: " رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب".

وقد بلغت السماحة الفكرية في الفكر الإسلامي المستنير في هذا الصدد حدا لا نظير له، عبر عنها الشيخ محمد عبده بما "اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم" قائلا: "إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"(٢).

ونظرا لما للدين من عمق عميق في النفوس فإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة.وقد حرص الإسلام كل الحرص

١ـ د. محمود حمدي زقزوق: التسامح في الإسلام ص ١٤.

٢ـ السابق ص ١٥.

على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصرا جوهريا من عناصر عقيدة المسلمين.

فالأديان السماوية جميعها تعد - في نظر الإسلام - حلقات متصلة لرسالة واحدة، جاء بها الأنبياء من عند الله ورسله وما أنزل عليهم من وحي إلهي، وفي هذا يقول القرآن الكريم : "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله"(البقرة آية ٢٨٥).

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامي في أي حوار ديني، بأنه موقف منفتح على الآخرين، ومتسامح إلى أبعد الحدود. فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة في التعاليم الإسلامية، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة. فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول الكريم إليها على التعددية الدينية والثقافية، ومارس المسلمون ذلك من بعده عمليا على مدى تاريخهم الطويل.

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يُكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام. فالحرية الدينية مكفولة للجميع، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذي أكده القرآن الكريم في قوله :"لا إكراه في الدين "(البقرة آية٢٥٦)، وفي موضع آخر:" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"(الكهف آية ٢٩). ومن القواعد الأساسية المعروفة في الشريعة الإسلامية في شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" أي أن لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات.

موقف الحضارات الأخرى من الآخر:

ليس جديدا أن يكتب كاتب عن سماحة الإسلام، ولا أن يقارن بين هذه السماحة الإسلامية ونظائرها في الأنساق الدينية والفلسفية والحضارية. خاصة وأن السماحة قد بدأت في التاريخ الإنساني، بظهور الإسلام، وأنها قد بلغت فيه مستوى متميزا لا نظير له خارج الإسلام.

فلقد ظهر الإسلام على يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس في العالم دين ولا حضارة تعترف بالآخر، أو تسالم الآخرين. ولقد تجسد هذا الإنكار المتبادل للآخر، في الواقع والممارسة والتطبيق، ثورات واضطهادات طفحت بها كتب التاريخ.

إن هذا الإنكار للآخر، واحتقاره واضطهاده، وتجريده من الإنسانية وحقوقها صنعته "الحضارة الغربية"، في بدايتها الإغريقية وفي طورها الروماني. ففي "أثينا" ـ التي ينسبون إليها ابتداء الديمقراطية. كانت هذه الديمقراطية احتكار القلة من الفرسان والأشراف الملاك، الذين يجتمعون في ميدان أثينا، يمارسون الديمقراطية ويتمتعون بجميع حقوقها ..أما غيرهم من البشر، فإنهم كانوا ـ برأيهم ـ "برابرة وهمجا" لا حظ لهم في الديمقراطية، ولا نصيب لهم من أية حقوق للإنسان!

وكذلك كان حال هذه (الحضارة) في طورها الروماني .. فعلى الرغم من إبداعها القانوني، الذي تبلور فى"مدونة" الإمبراطور "جستنيان"(٥٣٧ ـ ٦٦٥) إلا أن هذا القانون إنما كان حقاً من حقوق السادة الفرسان والأشراف الرومان.. أما الشعوب الأخرى، فلقد كانوا ـ برأيهم ـ "برابرة" لا حق لهم في أن يطبق عليهم قانون السادة الرومان!

ولذلك يقول الدكتور محمد عمارة(١) وإذا شئنا الإشارة إلى"دراسة حالة تطبيقية" لهذا الذي ساد العالم من إنكار للآخر واضطهاد كل طرف لكل آخر ـ قبل ظهور الإسلام وإبان ظهوره ـ فيكفي أن نشير إلى "حالة مصر"، فلقد شاع فيها اضطهاد أتباع "أخناتون" (١٣٨٠ ـ ١٣٦٢ق. م) لأتباع المعبود "آمون" فلما انتصر أتباع "آمون" بادلوا أتباع "أخناتون" إنكارا بإنكار واضطهادا باضطهاد.

فلما ظهرت النصرانية، وعرفت طريقها إلى مصر حوالى منتصف القرن الميلادي الأول، لقيت هذه النصرانية إنكارا شديدا واضطهادا اقترب من الإبادة على يد وثنية الرومان المستعمرين والوثنية المصرية.. ولقد بلغ هذا الاضطهاد الذروة في عهد الإمبراطور "قلديانوس"(٢٤٥ ـ ٣١٣م)، الذي حول النصارى إلى طعام للأسود والنيران وأسماك البحار! حتى لقد أرخ نصارى مصر ـ ولا يزالون ـ بعهده وسموه "عصر الشهداء"(٢).

فلما تدينت الدولة الرومانية بالنصرانية، في عهد الإمبراطور "قسطنطين"(٢٧٤ ـ ٣٣٧م) مارست النصرانية ـ الرومانية ـ والمصرية ـ الاضطهاد ضد الوثنية المصرية، فهدمت معابدها، وسحلت وذبحت فلاسفتها، وأحرقت مكاتبها، وعبثت بالآثار المصرية عندما حولت بعضا منها إلى كنائس وأديرة .. حتى لقد قاد الأسقف

١ـ د. محمد عمارة: سماحة الإسلام ص٢٢ـ ٢٣ مجلة التسامح العدد ١ سلطنة عمان ٢٠٠٤.

٢ـ يوحنا النيقيوس: تاريخ مصر ص ٩٠ ـ ٩٥ ترجمة د.عمر صابر عبد الجليل القاهرة عام ٢٠٠٠.

"تيوفيلوس"ـ الذي تولى البطريركية المصرية ما بين عام ٣٨٥ ـ ٤١٢م ـ حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها .. وطالت هذه الإبادة مكتبات المعابد"وتم السحل والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة، وعالمة الفلك والرياضيات (إنانية)(٣٧٠ ـ ٤١٥م) وذلك فضلا عن تحطيم التماثيل"(١).

ثم ما لبث الإنكار والاضطهاد أن عملا قانونهما وسيوفهما ـ بعد اختلاف المجامع النصرانية حول طبيعة المسيح ـ عليه السلام ـ فمارست النصرانية الرومانية ـ"الملكانية" ـ الإنكار والاضطهاد ضد النصرانية المصرية ـ "اليعقوبية" ــ فهرب النصارى المصريون إلى الصحارى والمفازات والكهوف.. وهرب رأس الكنيسة المصرية البطرك"بنيامين"(٦٢٣ ـ٦٦٢م) ثلاثة عشر عاما، حتى استدعاه وأمنه وأكرمه، وحرر كنائسه وردها إليه قائد الفتح الإسلامي "عمرو بن العاص"(٥٧٤ ـ ٦٦٤م) فاتحا بذلك أولى صفحات كتاب السماحة والتسامح في تاريخ مصر والمصريين.

موقف الإسلام من الآخر:

أما الإسلام فلقد كان له شأن مختلف في هذه القضية. فلقد بدأ الإسلام بوضع"لبنات عالمية إنسانية جديدة" وغير مسبوقة .. بدأ بالتأكيد على أن الله سبحانه وتعالى، هو رب العالمين (الحمد لله رب العالمين) (الفاتحة) وليس رب شعب دون شعب ولا أمة دون غيرها من الأمم، ثم أجمع على أن الإنسان الذي كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه، ليكون ربانيا هو آدم أبو البشر أجمعين"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"(الحجر آية ٢٨، ٢٩)، ولذلك فإن التكريم الإلهي هو لمطلق الإنسان: "ولقد كرمنا بني آدم"(الإسراء آية ٧٠). وليس هذا التكريم حكرا لشعب من الشعوب، ولا لأبناء دين من الأديان أو حضارة من الحضارات.

ونفى الإسلام أن يكون التفاوت في مراتب القرب من الله، سبحانه وتعالى، ثمرة "للصفات اللصيقة" (العنصرية) وجعل هذا التفاوت والتفاضل ثمرة لمعايير متاحة ومفتوحة أبوابها أمام كل إنسان، فالتقوى، والأمر

١ـ السابق ص ١٢٢، ١٢٥ـ ١٣٠.

بالمعروف والنهي عن المنكر، هي معايير الصلاح في المعاش والمعاد" إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(الحجرات آية ١٣). ولم يحتكر الإسلام النجاة لأبناء شريعة دون الشرائع الأخرى التي جاءت بها الرسالات السماوية في إطار الدين الإلهي الواحد، وإنما أكد على أن "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٠ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"(الزلزلة آية ٧).

وأشار إلى أن الذين آمنوا بوحدانية الذات الإلهية، وبالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء وعملوا صالحا في حياتهم الدنيا، وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية الحقة، لا يمكن أن يستووا بالذين جحدوا الحق بعد أن عرفوه، فكفروا بالألوهية الواحدة، وبالغيب، ولم يعملوا صالحا، وتنكبوا كل شرائع السماء "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(البقرة آية ٦٢).

بل بلغ الإسلام على هذا الدرب غير المسبوق إلى الحد الذي أوجب فيه العدل حتى مع من نكره "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون"(المائدة آية ٨). "ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا"(المائدة آية ٢)، بل والعدل مع من نقاتل، والعدوان علينا" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم "(البقرة آية ١٩٤).

كما سن الإسلام قواعد "للفروسية الإسلامية" غير مسبوقة ولا ملحوقة، في تاريخ الحروب، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد نُهي عن قتل النساء والولدان (١) وكان إذا بعث سرية قال لهم:"اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا (أي لا تخوفوا) ـ ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا"(٢).

ولقد صاغ أبو بكر الصديق(٥١ق.هـ ـ ١٣هـ) وهو على رأس دولة الخلافة الراشدة، هذه السنة النبوية، "وثيقة الفروسية الإسلامية" عندما أوصى"زيد بن أبي سفيان"(١٨هـ) وهو يودعه أميرا على الجيش الذاهب إلى بلاد الشام، فقال له:"إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له

١ـ رواه مالك في الموطأ.

٢ـ رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ.

.. وإني أوصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبيا، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقر شاة ولا بعيرا إلا لمأكله ولا تحرقن نخلا. ولا تفرقنه، ولا تغلل. ولا تجبن"(١).

فشملت ـ كما يقول الدكتور محمد عمارة(٢) ـ أخلاقيات الفروسية الإسلامية آداب التعامل مع الإنسان والحيوان والنبات والجماد. لأن "الخليقة ـ الطبيعة" كلها حية، تسبح خالقها، وإن لم نفقه لغاتها في التسبيح، فالعلاقة الإسلامية بها علاقة تآخي ورفق وارتقاء، وليست علاقة قهر وتدمير واستغلال.

وفوق كل ذلك، حصر الإسلام أسباب استخدام هذه الضرورة ومبرراتها وهو الاستثناء ـ القتال ـ في أمرين اثنين، هما: رد العدوان عن العقيدة، ليتحرر الضمير، ويكون الدين كله لله، ورد العدوان عن الوطن ـ الذي هو وعاء إقامة الدين ـ وذلك بردع الذين يخرجوننا من ديارنا أو يظاهرون على إخراجنا من الديار"عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ،وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"(الممتحنة آية ٧ـ ٩).

بل وحتى هذا القتال ـ الاستثنائي .. المكروه .. والمفروض ـ قد جعله الإسلام "تدافعا" ـ المقصد من ورائه تعديل المواقف، وتحقيق التوازن العادل، ليحل محل الخلل الفاحش، وصولا إلى التعايش بين الفرقاء المختلفين وليس"صراعا" يستهدف أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيلغيه .. فالتعددية والاختلاف والتمايز سنة من سنن الله لا تبديل لها ولا تحويل.

وإذا كان "الصراع" ينتهي بإلغاء هذه التعددية، والقضاء على الآخر "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية"(الحاقة آية ٧ـ ٨) فإن المقصد الإسلامي هو الإبقاء على التعددية، وتحقيق التوازن والتعايش بين فرقائها ـ بالتدافع لا بالصراع "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" (فصلت آية٤١) فالتدافع سبيل الحياة ولإصلاح الحياة، بينما الصراع هو طريق الفناء.

١ـ رواه مالك في الموطأ.

٢ـ د. محمد عمارة: سماحة الإسلام السابق.

التأسيس للتسامح:

يؤسس النص القرآني صيغة التعارف والتعايش في الاجتماع البشري، مبنية على الأمن والتسامح والسلم الأهلي في آيات متعددة منها قوله: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم". فإذا تساءلنا عن الأصول المنهجية لفقه التعارف المستوحاة من القرآن الكريم؟ ومرتكزات ثقافة التعايش مع الآخر الداخلي؟ فإننا نجد أن هذه الآية الكريمة التي هي الأساس في فقه التعارف تؤكد على عدة مسائل مهمة:

الأولى: تأكيد واقعية الخصوصيات الإنسانية القومية والعرقية والجغرافية؛ لأنها تمثل واقع الوجود الإنساني الذي لا يمكن إلغاؤه، لأن الإلغاء لا يغير شيئا من طبيعة المسألة الذاتية أو من تأثيراتها الموضوعية، باعتبار أن تلك الخصوصيات تدخل في تكوين الذات في العمق، ولا تمثل حالة هامشية، مما يجعل وجود الخصوصية مشكلة غير قابلة للحل بلحاظ ذاتيتها في الإنسان، كما أن العمل على إلغائها يضاعفها علميا ونفسيا.

الثانية: أن الإسلام يشجع على تحريك الخصوصيات في دائرتها الداخلية بجانبها الإيجابي الذي يدفع الإنسان إلى التفاعل عاطفيا وعلميا مع من يشاركونه تلك الخصوصيات والقضايا المتعلقة بها، ولكن بشرط أن لا تتحول تلك المشاركة إلى عقيدة عصبية تأخذ مبدأ عدوانيا تجاه الآخرين، بحيث تبتعد عن الخط الذي وضعه الإسلام في تشريعه للقاعدة التي تقوم عليها العلاقات وتتحرك على أساس مشاريعها العامة، ولعل أبلغ تعبير عن هذه الفكرة هو ما ورد في الحديث عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهم، حول العصبية حيث قال: "إن العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم"(١).

الثالثة: أن تنوع الخصوصيات الإنسانية قد يتمظهر في تنوع الخبرات العلمية، مما يجعل من كل شعب حاجة للشعب الآخر للحصول على الخبرة التي يفتقدها في ذاتية ظروفه وأوضاعه، وليقدم له ما يملكه هو من خبرة مختلفة في حاجته إليها، وفي ضوء ذلك يتم التعارف من موقع الحاجات المتبادلة فينتج التقارب والتلاقي اللذين يكشفان فيه وجود أمور مشتركة يلتقيان فيها، ويجدان أكثر من فرصة للتعاون معها، وبذلك تنشأ العلاقات

١ـ الكافي ج٣ ص ٣٠٨ وانظر محمد حسين فضل الله: قاعدة التعايش، قضايا إسلامية معاصرة ص ـ٢١، ٢٢ العددان ٢٠/٢١ بيروت عام ٢٠٠٢م.

الإنسانية على أكثر من صعيد ثقافي وعلمي وسياسي وأمني.

إن "التعارف" يمثل وسيلة لاكتشاف الآخر، فيما يملكه من معلومات، أو يعيشه من أوضاع، أو يخطط له من مشاريع، أو يتطلع إليه من طموحات، الأمر الذي يفتح أكثر من نافذة معرفية على طبيعة الشعب الآخر، ومن ثم على أسس التعاون المتنوع معه... ونستوحي من ذلك أن الإسلام لا يضع حاجزا بين الناس في كل مواقع اللقاء في القضايا المشتركة حتى مع اختلافهم في القضايا الأخرى وقد طرح الكلمة السواء كعنوان للتعايش مع الآخر في قوله تعالى: " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله".

إن القرآن الكريم يشي بكل المبادئ الكبرى التي تؤسس للاجتماع الإنساني المنشود في أرقى مستوياته وفي طليعة هذه المبادئ مبدأ حركة الكائن البشري ،أي حقه في الاختيار. أما الاهتداء إلى قواعد الحرية والعمل بموجبات هذه القواعد فهي مهمة بشرية بمعظم وجوهها، ومبدأ الحرية هو الأصل المنهجي لفقه التعارف والتعايش في الاجتماع البشري وما يتفرع عنه من حقوق أخرى كحق الاختلاف وتعايش المختلفين وحق تداول السلطة، وهو ـ أي مبدأ الحرية ـ هو المؤسس لأساليب التفاهم والحوار مع الآخر.

ولقد وجدنا الإسلام في تعامله مع أهل مختلف الشرائع السماوية، قد أضاف إلى تقريره وحدة الألوهية والربوبية لكل العالمين، عقيدة الإيمان بكل الكتب السماوية التي نزلت، وجميع النبوات والرسالات التي سبقت وسائر الشرائع الإلهية التي توالت منذ آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.

وبهذا الأفق الإسلامي في السماحة، احتضن الإسلام الكل، وجعل الإيمان فيه شاملا لكل ما أوحت به السماء على مر تاريخ الوحي إلى كل الرسل والأنبياء. وبذلك ـ ولأول مرة في التاريخ ـ جعل الإسلام "الآخر" جزءا من "الذات" فتجاوز بهذا المستوى غير المسبوق في السماحة، مجرد الاعتراف بالآخرين، والقبول بالآخرين: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان" (آل عمران ٢ـ٤). ولم ينه الإسلام الذين آثروا الشرائع الأخرى عن الاحتكام إلى ما بأيديهم من الكتب، بل أمرهم بتحكيمها" وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه" (المائدة آية ٤٧). (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله" (المائدة آية٤٣).

ولم يقف الإسلام بهذا الأفق، غير المسبوق، في السماحة والتسامح عند"الآخر" المتدينين بديانات سماوية فقط ـ أهل الكتاب من يهود ونصارى ـ وإنما امتد به ليشمل المتدينين بالديانات الوضعية .. فتركهم، هم أيضا، وما يدينون به، وعاملهم، في الدولة الإسلامية، معاملة أهل الكتاب، فعندما فتح المسلمون فارس ـ وأهلها مجوس ـ يعبدون النار، ويقولون بإلهين ،أحدهما للخير والنور، والثاني للشر والظلمة، عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمرهم على"مجلس الشورى"ـ الذي كان يجتمع بمجلس المدينة، في مكان محدد، وأوقات محددة، وكان عمر يجلس معهم فيه، ويحدثهم على ما انتهى إليه من أمر الآفاق والولايات والأقاليم، فقال لأعضاء مجلس الشورى: "كيف أصنع بالمجوس؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف، فقال "أشهد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال "سنوا فيهم سنة أهل الكتاب"(١). فعوملت الديانات الوضعية معاملة الكتابية، وجاء الفقهاء فقعدوا هذه السنة النبوية، وهذا التطبيق الراشدي لها(٢).

ولا ننسى ذلك العهد العمري الرائع، وغير المسبوق، والذي قطعه عمر بن الخطاب لأهل المقدس حين فتحها(٣) فقد "أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها :أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا شيء من أقوالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهود...".

وجاء في عهد "خالد بن الوليد" لسكان دمشق أيضا:"أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة الخلفاء والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية "(٤).

وحتى ندرك سمو هذا الأفق الإسلامي الجديد، في السماحة والتسامح، والذي بدأ الإسلام والتاريخ الحقيقي للسماحة في مسيرة الإنسانية وشرائعها وفلسفتها وحضارتها، نلفت الأنظار إلى حقيقة أن الإسلام لم يضع هذا الاعتراف "بالآخر " والقبول لهذ ا"الآخر" وتمكن "الآخر" من إقامة عقائده، لم يضع الإسلام كل ذلك

١ـ البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٢٧ تحقيق د. صلاح الدين المنجد، القاهرة عام ١٩٥٦م.

٢ـ د. محمد عمارة: سماحة الإسلام ص٢٨-٢٩.

٣ـ الطبري: تاريخ الأمم ج١ ص ٢٤٠٥.

٤ـ البلاذري: فتوح البلدان، نشر دي غويه ص ١٢١.

باعتباره مجرد "مباح" وحق من حقوق هذا "الآخر"، وإنما جعل ذلك فريضة إسلامية، وشرطا لاكتمال الاعتقاد بعقائد الإسلام!

وأكثر من هذا، وفوقه.. فإن الإسلام لم يقف بذلك الأفق السامي، عند "الآخر" الذي يبادل الإسلام اعترافا باعتراف، وقبولا بقبول، وإنما صنعه من "الآخر" الذي ينكر الإسلام ويجحده ويكفر بمقوماته، وكل الآخرين، الذين ينكر كل واحد منهم صاحبه، ويجتمعون جميعا حتى هذه اللحظة، على إنكار الإسلام ووجوده والكفران به.. فلا يأمنون بأن قرآنه وحي سماوي، ولا بأن رسوله مبعوث إلهي، ولا بأن ما جاء به دين إلهي، ومع كل ذلك، وبرغمه، كان هذا هو موقف الإسلام ـ غير المسبوق وغير الملحوق ـ في الاعتراف بكل الآخرين، الذين ينكرون ويجحدون.. بل لقد تجاوز الاعتراف بهم، والقول لهم، ووصل إلى حد جعلهم جزءا من "الذات" ذات الدين الإلهي الواحد.. وذات الأمة الواحدة، بل وجعله تمكينهم من حرية إقامة جحودهم بالإسلام شرطا من شروط اكتمال عقيدة الإسلام وإسلامية دولة الإسلام!

فهل في تاريخ الدنيا والأمم والحضارات والشرائع والثقافات والفلسفات ـ قبل الإسلام وبعده ـ سماحة شبيهة بهذه التي بدأت بالإسلام، والتي تفرد بها الإسلام؟ ففي دولة المدينة، التي رأس حكومتها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نص "دستورها" (الصحيفة ـ الكتاب) على التعددية الدينية لرعية هذه الدولة الإسلامية الأولى، وعلى مساواة العدل والإنصاف في حقوق المواطنة بين هذه الرعية المختلفة والمتعددة في الدين.

لقد حول الإسلام "القبائل" إلى لبنات (الأمة) الجديدة، وجعل أبناء الشرائع الدينية المتعددة لبنات أصلية في هذه الأمة الواحدة، وفي رعية هذه الدولة الإسلامية الواحدة، حتى إن تاريخ الفكر الإسلامي لم يعرف مصطلح "الأقلية" وإنما عرف (الأمة الواحدة).

ونص "دستور" الدولة الإسلامية الأولى على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود، فإن لهم النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا

يكسب إلا على نفسه"(١).

وهكذا أسس هذا "الدستور" في الدولة الإسلامية الأولى ـ تكامل المساواة في حقوق المواطنة وواجباتها، على نحو غير مسبوق وغير ملحوق في الإطار غير الإسلامي ـ منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا.

ويزيد من عظمة هذا الإنجاز لهذه التعددية وهذه المساواة، أنها لم تتم على أنقاض الأديان المختلفة، وفي ظل استبعاد هذه الأديان، كما هو الحال مع حقوق المواطنة في الدول العلمانية، وإنما هي تعددية ومساواة بين فرقاء يحتفظون بتنوعهم الديني واختلافاتهم العقائدية .. كما أن هذه التعددية وهذه المساواة في حقوق المواطنة لم تتم على أنقاض المرجعية الإسلامية، وبسبب استبعادها، كما يريد العلمانيون، وإنما الذي أنجزها هو الإسلام، والتي حكمتها هي المرجعية الإسلامية، التي نص عليها هذا"الدستور" عندما قال: " وأنه ما كان من أهل الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم"(٢).

وفي أول احتكام بين هذه الدولة الإسلامية الأولى وبين النصارى، عندما اتسعت دائرة حدودها فشملت رعية نصرانية ـ هم نصارى "نجران" ـ كتب لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهدا وتعاقدا دستوريا ـ قنن فيه هذه التعددية الدينية في رعية الدولة، وكامل المساواة والإنصاف في حقوق المواطنة وواجباتها.

جاء في هذا العهد: "ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا نغير أسقفا من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا يحشرون (أي يكلفون القتال) ولا يعشرون (أي لا يدفعون العُشر الذي يدفعه التجار) ولا يطأ أرضهم جيش.

ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. وإن أحمي جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا من جبل أو واد أو مغار أو

١ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص١٧ـ ٢١ جمعها وحققها د. محمد حميد الله "حيدر أبادي"، عام ١٩٨٧م.

٢ـ السابق ص ٢٠.

عمران أو سهل أو رمل، وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا، من بر أو بحر، شرقا وغربا، بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. ولهم إن احتاجوا في حرمة بيعهم وصوامعهم أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم، إلى رفد (مساعدة) من المسلمين وتقوية لهم على مرتها ،أن يُرفدوا على ذلك ويعانوا، ولا يكون ذلك دينا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله وموهبة لهم، ومنة الله ورسوله عليهم. لأني أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، بالعهد الذي استوجبوا الذمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذب عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

وإذا كانت الدهشة تملك قلوب أهل هذا العصر وعقولهم من هذا السخاء في المساواة والعدل والإنصاف الذي أعطاه الإسلام ودولته "للآخر الديني" قبل أربعة عشر قرنا، فإن هذه الدهشة ستزداد وتتعاظم عندما يعلموا ـ وتعلم الدنيا ـ أن الإسلام لم يطلب من هذا (الآخر الديني) مقابل كل هذا السخاء في (الحقوق) سوى (واجب واحد) هو أن يكون هذا (الآخر) لبنة في جدار الأمن الوطني والحضاري للدولة الإسلامية، وأن يكون ولاؤه كاملا للدولة والوطن، وانتماؤه خالصا للأمة، التي هو جزء أصيل منها، وألا يكون ثغرة اختراق لحساب أي من الأعداء(١).

وهكذا بلغ الإسلام القمة، عندما جعل (الآخر) يحافظ على اختلافه ومغايرته، وحرس هذه المغايرة، وهذا الاختلاف، ومحاهما مع جعل هذا (الآخر) جزءا من(الذات) أي الأمة الواحدة، ورعية الدولة الواحدة .. وعندما جعل كل ذلك جزءا من الاعتقاد الإسلامي، والتكليف الإلهي، والسنة النبوية والسياسة الشرعية، وعهد الله وميثاقه، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان يمنحه الحاكم، ويمنعه آخرون!

ومن الملاحظ أن صحيفة المدينة أو دستور المدينة، تعتبر أول ميثاق للتعايش في الاجتماع الإسلامي دوّنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغية بناء نسق تعاوني بين مختلف الفئات في مجتمع يضم المسلمين واليهود والنصارى وينتمي إلى قبائل شتى في المدينة المنورة. تُرى ما هي صيغ التعايش التي جسدتها المسيرة النبوية، ونمط الاجتماع الإسلامي في عصر البعثة الشريفة؟

١ـ د. محمد عمارة سماحة: الإسلام ص٣٢، ٣٣.

لقد كانت صحيفة المدينة تجسيدا للقانون الإسلامي العام في إيجاد ميثاق مع كل الفئات المخالفة للمسلمين في الدين، على أساس تقرير مبدأ المواطنة القائمة على العقد الاجتماعي في إطار العهد الذي يتحول من خلال التزام الشرعية الإسلامية به إلى عهد الله وميثاقه، باعتبار الأمرّ الإلهي في الوفاء بالعقود والعهود، وذلك على أساس القانون العام الذي يحكم الأمة كلها، ملاحظا حقوق الأقليات الدينية، وربما غير الدينية في تأكيد الالتزامات العامة بالقانون الدستوري، والمراعاة لحقوقهم الدينية، والإنسانية الخاصة.

وقد لاحظنا أن مسألة التطبيق كانت مسألة دقيقة، فلم يحدث في مدى الوجود الإلهي المسالم في المدينة أية حالة من حالات الاعتداء على اليهود في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم واستقرارهم في الوطن الإسلامي الجديد، ولم يتعرض أحد لسوء، مما يخالف أصول الصحيفة ـ المعاهدة، حتى نقضوا العهد وتحالفوا مع المشركين في واقعة الأحزاب، مما جعل المسلمين في حل من الالتزام بالعهد، لأنهم تحولوا إلى حالة حرب ضد الأمن الإسلامي، الأمر الذي أوصل الواقع إلى الخطر على الوجود.

ومن هنا يقول الشيخ "محمد حسين فضل الله "(١): وإننا نعتقد أن دراسة هذا العهد الذي ساوى بين المسلمين واليهود في الحقوق والواجبات الوطنية يمكن أن يعطينا قاعدة للتعايش بين المسلمين وغيرهم، مرتكزة على العهد المبني على التوافق بين الطرفين، من خلال روحية الاحترام المتبادل، مع ملاحظة الخصوصيات التي يملكها كل فريق في شؤونه الخاصة في دائرته المعنية في نطاق الوطن الواحد، لنخرج بأسلوب إسلامي مميز في الوطن المتنوع في خصوصياته الإنسانية، فلا يلغي العام الخاص، بل يتكامل العام مع الخاص، لتكون النتيجة في الصورة البارزة وحدة في التنوع أو تنوعا في الوحدة في خط الحقوق العامة والخاصة، بحيث يتحرك التشريع ليمنح الأقليات حقوقا إنسانية، لا تعزلهم عن المواطن في دائرة الأكثرية، من خلال المشاركة في حقوق المواطنية العامة، ولا تبعدهم عن هوياتهم الدينية أو الفئوية في حرياتهم الخاصة بما لا يتنافى مع القانون العام".

إن قيمة صحيفة المدينة أن النظرية الإسلامية في التعايش على أساس قاعدة (العهد) تحركت مع سلامة التطبيق في النسيج الاجتماعي المتوازن بينهم وبين المسلمين، بالرغم من الدسائس الخفية التي كانوا يمارسون تحريكها في داخل المجتمع الإسلامي لإعادة الأحقاد بينهم، لا سيما في بعض تحالفاتهم السرية مع المنافقين.

١ـ انظر الشيخ محمد حسين فضل الله: الكلمة السواء قاعدة التعايش من ص٢١ـ ٣٧ قضايا إسلامية العددان ٢٠، ٢١ بيروت عام ٢٠٠٢م.

ولم يقم المسلمون بأي عمل سلبي لإخراجهم من دينهم بالقوة، حتى مع بعض خططهم التي كانوا يخططون بها لإيجاد حالة من الشك والريبة لدى المسلمين في دينهم. وكان النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستقبلهم، ويستمع إلى حواراتهم، ويقبل الدعاوى الموجهة ضد بعضهم بعضاً، برحابة صدر، وبكل مسؤولية، حتى إنه كان يرجعهم إلى أحكامهم الشرعية في التوراة حذرا من أن يفرض عليهم أي حكم إسلامي لا يعترفون به.

ولعل مما يميز العدالة الإسلامية في تعامل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم هو أن بعض المسلمين قام بالسرقة لبعض الناس، وحاول أهله إلصاق التهمة بيهودي، من خلال بعض القرائن المزورة، أو الشهادة الكاذبة، لتبرئة المسلم ٠فأنزل الله قرآنا لتبرئة اليهودي، طالبا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يدافع عن الخائنين من المسلمين، وأن لا يحكم ضد اليهودي البريء في مدى ٩ آيات، بدأت بقوله تعالى: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما" (النساء آية ١٠٥، ١٠٦). مما يوحي بأن حفظ حقوق اليهودي البريء، الذي يملك حق الدفاع عن حقوقه في المجتمع الإسلامي، بفعل مبدأ العدل الشامل وبواسطة المعاهدة، هو من الأمور الحيوية، بالدرجة التي يتدخل معها الوحي لتأكيد سلامة التطبيق في هذه القضية الحساسة التي اجتمعت فيها كل وسائل الإثبات ضد اليهودي، حتى لا يشعر المظلوم (ولو كان يهوديا) بأن الإسلام لا يقف إلى جانب الظالم (ولو كان مسلما) وهذه مسألة غير عادية، لا سابق لها من حيث تدخل الوحي الإلهي فيها.

الاختلاف والتعددية (إشكالية التأسيس):

الاختلاف سنة ماضية في الحياة البشرية "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"، وقد نهى القرآن الكريم عن النزاع والتفرق الذي يفضي إلى تمزق المجتمع.. لكنه اعترف بالاختلاف، وقبل التنوع والتعدد. إن الاختلاف وتعدد وجهات النظر في المجتمعات الإنسانية لسنة ماضية بين سنن الله سبحانه وتعالى، واقتضت الحكمة الإلهية أن تختلف آراء الناس في صغير الأمور وكبيرها، سواء في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة، ومرجع ذلك أنهم مختلفون في الفهم والعلم والإدراك، كما خلقوا مختلفين في الأمزجة والميول والرغبات.

فإذا تساءلنا عن الإطار القرآني للتعايش، رغم التنوع والاختلاف؟ لوجدنا أن التعدد والتنوع، وبالتالي الاختلاف هي من الحقائق الطبيعية الواضحة في تكوين الاجتماع البشري، وهي سمات بديهية لهذا الاجتماع،

ولكن غير البديهي وغير المتفق عليه تاريخيا هو الموقف من هذه السمات، حيث يتفاوت النظر إليها وإلى مصائرها، وإلى ما ينبغي أن تؤول إليه، بين اتجاهات تنظر إليها بوصفها ظواهر سلبية في الاجتماع البشري، لابد من مواجهتها بواسطة الدعوات الإصلاحية وصولا إلى نوع من (اليوتوبيا) تقضي بمساواة البشر ووحدتهم الكاملة، وبين اتجاهات نظرت إلى هذا التعدد بوصفه مظهرا طبيعيا للحياة البشرية، تماما كاختلاف الألوان والأجناس، بل اتجهت إلى التنظير للاستقلال والتعايش بين الجماعات البشرية المختلفة وداخل الجماعة الواحدة.

وهذه النزعة هي الغالبة على الوجهة العامة للأديان وللدعوات الكبرى في تاريخ الاجتماع البشري، ولكن رغم غلبة هذه الوجهة في إطار الفكر الإسلامي، فإن أشكال التعامل التاريخي الإسلامي مع حقائق التعدد والاختلاف داخل الجماعة الواحدة أو بين الجماعات المتعددة لم يكن كذلك، بل اتسمت ـ إلى حد كبير وإلى حد ما أحيانا ـ بقمع التعدد واختزاله بحيث لم يعد الاجتماع الإسلامي صورة للتوجه القرآني في هذه المسألة إلا في حدود ضيقة، وأحيانا في حدود رحبة بالمقارنة مع صور الاجتماع غير الإسلامي خصوصا في العصر العباسي، حيث شهد الاجتماع الإسلامي قابلية متقدمة في احتضان المتعدد والمختلف.

إذن، فالتوجه القرآني لا يختلف عن الاتجاه التاريخي النظري العام في الدعوة إلى قبول التعدد والاختلاف، ولكن الميزة القرآنية تكمن في التأصيل الديني لفكرة وتعايش المختلفين، تردها إلى أساس الخلق كما في الآية: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة". وهو أساس يرتبط بمبدأ حرية الكائن الإنساني ومسؤوليته، حيث لا مسؤولية بدون حرية، ولا حرية للكائن الإنساني فردا أو جماعة دون امتلاك حق الاختلاف والتنوع، وليس صحيحا القول بأن الفرد أو الجماعة تكون حرة قبل الدخول في الإسلام، أما بعده فهي تفقد حريتها.

إن اختيار الإسلام عقيدة وهوية هو ثمرة اختيار حر يتخذه الفرد أو الجماعة، وكل اختيار حر ينشأ عنه التزام ومسؤولية، والالتزام والمسؤولية لا يترتب عليهما فقدان الحرية بل يزيدان من رصيدها، والجماعة حين تنجز بواسطة حريته، الانخراط في دائرة العقيدة الإسلامية، فإنها تغدو أكثر حرصا على ممارسة تنوعها داخل هذه الدائرة، كما تغدو أكثر استيعابا لحق الآخر خارج العقيدة الإسلامية في ممارسة اختلافه وتميزه عنها.

إن أبرز مصاديق تكريم الكائن الإنساني "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر" وفق القرآن الكريم تكمن ـ من وجهة نظري ـ في أن حريته، وبالتالي اختياراته المشتقة من قواعد الحرية نفسها لا تشكل سببا لحرمانه من حقوقه الطبيعية المكرسة، ومنها حقه في أن يكون مختلفا. إن مفهوم النزاع والتفرق الذي نهى عنه القرآن الكريم، ليس منشؤه التعدد والاختلاف داخل الجماعة، أو بين الجماعات المختلفة، وإنما منشؤه الطغيان، وسوء الإدارة لهذا التعدد، حيث تقوم بين الجماعات المختلفة علاقة النفي والنفي المتبادل، وحيث يجري الاحتكام إلى مبدأ القهر والغلبة.

إن القرآن الكريم لا يشترط للإسلام البشري نفي حق التعدد والاختلاف، بل على العكس من ذلك فإنه يشترط للسلام البشري الاعتراف بهذا الحق وحمايته، ومن ثم التعارف بين الجماعات المختلفة ،أي الاعتراف المتبادل بينها، والتزام مبدأ الحوار فيما يختلفون عليه(١).

إن النزعة التمامية التي اتسمت بها بعض التيارات الإسلامية السياسية الحديثة تجاه الاجتماع السياسي الإسلامي كانت نزعة ضارة، أطلقها هاجس الغلبة وهاجس استعادة السيطرة من الآخر، وأخذت طريقها إلى إنتاج فقه سياسي ينسجم مع هاجسها، وقد آن الأوان للتحرر من هذا الهاجس، واكتشاف المدى الحيوي لفقه الاختلاف والتعدد، حيث تكمن القيمة الجوهرية للإسلام بوصفه دعوة عالمية.

الحوار منهج التواصل:

شاع في العقود الأخيرة استعمال مصطلح "حوار" Dialigue على كافة الأصعدة؛ السياسية؛ والاقتصادية، والثقافية، والدينية، فنشأ ما يعرف بـ (حوار الأديان)، أو (الحوار بين الأديان) Interrligiouse Dialigue أو Inter Faith أو (حوار الحضارات) أو حوار الثقافات، وصار محبذا لدى المشتغلين في هذا الحقل، مقدما على غيره من الاصطلاحات، مما يستدعي إلقاء الضوء على دلالته.

فالحوار من حيث اللغة، مادته(حور) والحوار: الرجوع عن الشيء إلى شيء.. والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب..والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة(٢). وعلى هذا النحو جاء استعماله في القرآن

١ـ محمد حسن الأمين: فقه التعدد والاختلاف، قضايا إسلامية معاصرة العددان ٢٠، ٢١ بيروت.

٢ـ ابن منظور: لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب دار إحياء التراث العربي ٣/٣٨٣ـ ٣٨٤ بيروت عام ١٩٩٦م.

قال الراغب في "مفردات القرآن": "والمحاور، والحوار: المرادة في الكلام، ومنه التحاور، قال تعالى: "والله يسمع تحاوركما "(١). وقد جاءت الكلمة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، في سورة الكهف. ومن هنا يتبين أن الحق والباطل في صراع دائم، والجدال سلاح يستخدمه أهل الحق كما يستخدمه أهل الباطل، والحوار لون من ألوان الجدال بالتي هي أحسن بين فريقين، يحاول كل فريق إثبات وجهة نظره، ورغبته الصادقة للوصول إلى الحق.

أما المعجم الفلسفي في تحليل لفظ حوار Dialigue، فيذهب إلى أن: حاوره محاورة وحوارا، والمحاورة: المجاوبة، أو المراجعة النطق والكلام في المخاطبة. والتحاور والتجاوب. ولذلك كان لابد في الحوار من وجود متكلم ومخاطب، لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيح للمعاني وإغناء للمفاهيم، يفضيان إلى تقدم الفكر، وإذا كان الحوار تجاوبا بين الأضداد، كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس، والحب والواجب، سمي جدالا(٢).

وهذا الذي ذهب إليه المعجم الفلسفي لا يبعد كثيرا عن معناه في الفكر الإسلامي، فالجدل أو الحوار هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره، والنظر قد يتم به وحده(٣).

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق وإبداء وجهة نظر، وهكذا فالحوار: جدال كلامي يتفهم كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الأدلة التي تنير له بعض النقاط التي كانت غامضة عليه(٤).

وأما مشروعيته وهل أقره الإسلام؟ فلا شك أنه يعد من الوسائل الحضارية التي استخدمها منذ الأزل، لنشر أفكاره، وإقناع الآخرين "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا". والإسلام قد شرع الوسيلة هذه للدفاع عن الحق

١- مفردات القرآن ١٣٥.

٢- جميل صليبا: المعجم الفلسفي ج١ ص ٥١ بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٩٣م.

٣- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي: تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ص٣٥٣ مؤسسة الرسالة، بيروت عام ١٩٩٣م.

٤- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ط٣ دار العلم دمشق.

مشروطا بشرط عام هو أن يكون الحوار بالتي هي أحسن، قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: "وجادلهم بالتي هي أحسن. وهذا الذي ذهب إليه المعجم الفلسفي لا يبعد كثيرا عن معناه في الفكر الإسلامي، فالجدل أو الحوار هو عبارة عن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره، والنظر قد يتم به وحده(١).

فحقيقته اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التي تعني التباحث بين طرفين أو أكثر، ومراجعة الكلام بينهم بغرض التوصل إلى اتفاق وإبداء وجهة نظر، وهكذا فالحوار: جدال كلامي يتفهم كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الأدلة التي تنير له بعض النقاط التي كانت غامضة عليه(٢).

وأما مشروعيته وهل أقره الإسلام؟ فلا شك أنه يعد من الوسائل الحضارية التي استخدمها منذ الأزل، لنشر أفكاره، وإقناع الآخرين "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا". والإسلام قد شرع الوسيلة هذه للدفاع عن الحق مشروطا بشرط عام هو أن يكون الحوار بالتي هي أحسن، قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: "وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل آية ١٢٥). يقول "حسن حبنكة الميداني": "والتقدير في الآية إن سلك مجادولكم مسالك غير مهذبة القول فاسلكوا كل طريقة هي أحسن وأفضل"(٣).

وعبارة"بالتي هي أحسن"عامة وشاملة لكل الأساليب المتاحة: القولية والفكرية.. الإسلام شرع هذه الوسيلة مشروطة بشرطها، وطلب من المسلمين أن يكونوا في حوارهم في حالة من الرقي والأدب قولا وفكرا.

لقد كان من قيم الإسلام الأساسية ومبادئه الأخلاقية البحث عن الحقيقة والانتصار لها ودعمها بالحجج والبراهين التي تؤدي إلى التفاف الناس حولها بإرادتهم وحريتهم دون خوف أو إكراه. وهذا بالطبع لا يتم إلا بالحوار الإيجابي الذي رسم القرآن الكريم طريقه وعبّد مسلكه ومنهجه.

١ـ السابق ص٣٦١.

٢ـ د. بركات محمد مراد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، الصدر للنشر، القاهرة ١٩٩٠م.

٣ـ عبد الرحمن حسن حسن حبنكة: ضوابط المعرفة السابق.

وقد كان القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية التي جاءت لتعلم الإنسان كيف يكون الحوار طريقا للفكر، ومنهجا للعقيدة والعمل، وأسلوبا للتواصل مع الآخرين. وجاء الإسلام ليكون دين الحوار الذي يطلق للفكر أن يفكر في كل شيء وليتحدث عن كل شيء، وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل(١).

في البدء كان الحوار، كان الملائكة يسبحون ويقدسون الله في ابتهال وخشوع وإخلاص، ويشاء الله تعالى أن يخلق الإنسان ليكون "خليفة في الأرض" ويعلن لهم هذه المشيئة الحاسمة.

ويبدأ الحوار في سؤال عن طبيعته وعن دوره وعن سلبياته وإيجابياته، يقول الله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"(البقرة آية ٣٠- ٣٣).

يقول المفسرون إن خطاب الله تعالى لملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة، ليس المقصود به المشورة وإنما التعريف بوجه الحكمة من هذه الخلافة، أو المقصود تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على عقلائهم وحكمائهم.

كما أوضح الله تعالى بعد ذلك بعض جوانب الحكمة من خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، لأنه علمه ما لا علم لهم به، وسخر له ما في الأرض جميعا، وجعله مسيطرا عليه، وأنه حمله الأمانة التي لم تستطع أن تحملها السماوات والأرض والجبال، وعندئذ سجد الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم وامتثال لأمر الله.

ثم يأتي الحوار في كثير من المواضع في القرآن الكريم، مثل ذلك الذي حدث مع إبليس، ويأتي في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال سورة الحجر، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

١- د. عبد العزيز الرشيد سالم: مبدأ الحوار في الإسلام ص٦٣ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر ٢٠٠٣م، وانظر محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن - قسنطينة - الجزائر عام ١٣٩٦هـ

فسجد الملائكة كلهم أجمعون ،إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين "(الحجر آية ٢٨). الملائكة أطاعوا وسجدوا، وأقام الله لهم الحجة، أما إبليس فإنه استكبر وعاند ورفض السجود، وازداد غيا بمحاجاة الحق سبحانه وادعاء ما لا يملكه.

ويحكي القرآن الكريم ما دار بين الخالق سبحانه وتعالى وبين إبليس من محاورات، فيقول في آياته: "قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين"(الحجر آية٣٢). فأجابه إبليس: "لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون"(الحجر آية٣٣). وهناك حوار آخر يوضح عدم سجود إبليس حين يقول تعالى: "قال ما منعك ألا تسجد إذ خلقتك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين"(الأعراف آية١٣١).

وهنالك أيضا حوارات بين ولدي قابيل وهابيل في سورة المائدة آية ٢٧ - ٣١، وكذلك بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وعبدة الكواكب، سورة الأنعام آية ٧٤ - ٧٩ وسورة مريم آية ٤١- ٤٨، وكذلك حوار موسى عليه السلام مع قومه، سورة البقرة آية ٦٧ - ٧١ وهي كثيرة في القرآن الكريم.

وقد وردت كلمة"حوار" في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع وجاءت اثنتان منها في سورة الكهف في معرض الحديث عن قصة صاحب الجنتين، وحواره مع صاحبه الذي لا يملك الكثير من المال وغيره. فقد استعمل القرآن الكريم كلمة (حوار) في موضعين منها: ".. فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" (الكهف آية ٣٤). و"قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا"(الكهف آية ٣٧). أما الآية الثالثة التي وردت فيها هذه الكلمة فقد جاءت في سورة المجادلة في قصة المرأة التي أتت إلى النبي شاكية زوجها إلى الله: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير" (المجادلة آية ١).

ومن هنا يتبين لنا كيف اهتم الإسلام بإفساح المجال للأفكار والرؤى وتعدد المنظور لإثراء الفكر وتعميق الرؤية، لإقناع الآخرين، لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل الغلبة والإفحام، ولكن من موقع الإقناع والاقتناع.

ولهذا لجأ الإسلام إلى الجدل القائم على الحوار المباشر، الذي ينطلق من طرح الفكرة في ميدان الصراع من أجل إشغال الساحات بعلامات الاستفهام، التي يطرحها الإسلام مع أجوبتها أحيانا، ليوفر على المتصارعين عناء جهد البحث عن سؤال، قد لا يجدونه جاهزا في أفكارهم، وربما يواجهون صعوبة في العثور عليه(١).

كل ذلك من أجل أن تدخل الفكرة في وعي الإنسان بعمق، وتقتحم أفكاره بقوة، ولهذا طرح الإسلام ـ في القرآن الكريم ـ جدال الإنسان وحواره الذاتي مع نفسه إلى جانب حواره مع مجتمعه، ومع الفئات التي كانت تمثل القوة المعارضة آنذاك. ثم لم يقف عند ذلك، بل حاول أن يخلد كل ما أثير من مفردات الجدال حول العقيدة، من أجل استمرار الإيحاء بضرورة التوفر على هذا الأسلوب في حركية العقيدة والحياة. ويتبين لنا مدى أصالة الرؤية الإسلامية في جعل (الحوار) منهجا من مناهج العرفان، وطريقا إلى إدراك الحق في ذاته، وأصالة القرآن الكريم في احترام الآخر، سواء كان شيطانا أو ملاكا أو إنسانا يتفق أو يختلف في العقيدة والدين أو الرؤية والإدراك، حتى يكون الأمر عليه حجة بالغة.

وقد انطلق الإسلام ـ في هذا الاتجاه ـ إلى أبعد حد، فأكد في أكثر من مجال على دور الحجة في الإيمان وفي المسؤولية، فمن ذلك ما جاء في القرآن الكريم عن الله تعالى، وهو يحدثنا عن الحجة البالغة التي أقامها على العباد فيما يريدهم أن يؤمنوا به، في قضية الكفر والإيمان كما في قوله تعالى: " قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين"(الأنعام آية ١٤٩).

ويحدثنا في بعض الآيات عن رفضه لوقوف المؤمنين موقف الضعف أمام الناس الذين يحاولون أن يثيروا الحجج ضد الإيمان والمؤمنين، في قوله تعالى: "...لئلا يكون للناس عليكم حجة"(البقرة آية ١٥٠). وهناك آيات كثيرة توضح لنا الصورة الحية للمنهج الإسلامي والذي يجعل المركز الأول في العقيدة للحجة والبرهان، فلا إيمان بدون حجة، ولا مسؤولية إلا بعد إقامة البرهان، وإثارة الأجواء التي تنطلق بالحجج الإلهية لتدفعهم إلى التفكير والحوار في رحلة الإنسان من الشك إلى الإيمان.

حتى في يوم القيامه، لا يقف الإنسان مكتوف اليدين أمام مصيره، بل يترك له مجال الدخول في حوار وجدال يدافع به عن نفسه، على أساس من العدالة التي تحترم في الإنسان حقه الطبيعي في الدفاع عن نفسه

١ـ انظر د. محمد التومي: الجدل في القرآن، قسنطينة، الجزائر ١٩٧٩م.

حتى أمام الله تعالى، ألا يعلم كل شيء ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وذلك في قوله تعالى: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون"(النحل آية ١١١).

ويعتبر الجدل والحوار ميزة وخاصية من خصائص الإنسان عبر عنها القرآن وأشار إليها وعول عليها فإذا تتبعنا المقامات القرآنية التي تناولت الحديث عن الحوار والجدل تجد منها ما يفيد أن"الجدل" منزع جبلي في الإنسان، فالقرآن يصرح ببيان خاصية من خاصيات الكائن البشري وميزة من مميزاته، وهي كونه "أكثر الأشياء جدلا ". " ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا" (الكهف آية ٥٤).

ومعنى هذا أن الإنسان بحكم كونه يملك إمكانات ذهنية، إلى جانب ما يحمله من نوازع، تحرص كل الحرص على الإشباع، والظفر بمبتغاها، نراه قادرا على الدفاع عن كيانه، وعن ذاتيته، بشكل تلقائي، وهو ما يولد فيه ـ جبلة ـ الميل للخصام، وحتى المراء، فهو ينازع ويعاند، ويجادل إثباتا لوجوده وتأكيدا لبقائه، وإظهارا لشخصيته، قال الإمام المراغي: "إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل مجادل، لما أوتيه من سعة حيلة وقوة المعارضة واختلاف النزعات والأهواء وقوة العزيمة على غير حد"(١).

وفي الحقيقة فهذه الخاصية المميزة للإنسان تساعده على ترقية اتجاهه نحو الكمال، من حيث إنها تتيح له اتساعا في النظر والرؤية، وتكشف له عن كثير من جوانب الموضوع الذي يضعه في بؤرة تفكيره وهدفا لاستبصاره، فهذا الجدل وذلك الحوار لا ينشأ إلا لوجود الاختلاف في إدراك الحقائق، ولا يكون إلا لتعدد الرؤية(٢).

والاختلاف والمخالفة أن ينهج كل شخص طريقا مغايرا للآخر في حاله أو في قوله. والخلاف أعم من "الضد" لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين،ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى

١ـ الشيخ أحمد مصطفى المراغي: التفسير ج٥ ص١٦٦ ط ٤ مصر عام ١٩٧٢م.

٢ـ انظر د. بركات محمد مراد :ابن حزم ومنهج الجدل والمناظرة، مجلة جذور العدد١٦ جدة محرم ١٤٢٥هـ

التنازع استبعد ذلك للمنازعة والمجادلة، قال تعالى: " فاختلف الأحزاب من بينهم"(مريم آية٣٧). و"ولا يزالون مختلفين" (هود آية ١١٨). و"إنكم لفي قول مختلف"(الذاريات آية ١٨).

وعلى ذلك يمكن القول بأن "الخلاف والاختلاف" يُراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أو الحال أو الهيئة أو الموقف. وقد قضت مشيئة الله تعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف في الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام وتختلف باختلاف قائليها، وإذا كان اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آية من آيات الله تعالى، فإن قدرته، وإن إعجاز الكون وازدهار الوجود وقيام الحياة لا يتحقق أي منها لو أن البشر سواسية في كل شيء "وكل ميسر لما خلق له"، "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"(١).

فالاختلاف بين الناس أمر طبيعي، وهو يساعد على تقدم وازدهار الحياة الفكرية والثقافية، خاصة حين يلتزم بآداب الاختلاف، فهو يتيح إذا صدقت النوايا، التعرف على جميع الحالات التي يمكن أن يكون الدليل رمى إليها بوجه من وجوه الأدلة، وفي الاختلاف رياضة الفكر والذهن، وتلاقح الآراء وتنوع النظر بما يثري التجربة الإنسانية ويساعد على التواصل بين الذات والآخر، على أساس المكاشفة والمعرفة والرؤية الواضحة.

وفي البيئة الإسلامية المواتية، خاصة في عصر ازدهار الإسلام وانتشار حضارته في الآفاق توفرت جهود نفر من علماء الأمة وصلحائها، على إرساء قواعد الحرية الفكرية التي تتغذى بالحوار وتنمو بالمراجعة، وتصح بالنقاش، فنشطت حركة الاجتهاد، وتنوعت أساليب العمل، وتلاقحت الرؤى ووجهات النظر، فأثمر ذلك في واقع الحياة قوة في البنية الفكرية، ووعيا في التناول والمعالجة، واحتفاء بالرأي، وتلمسا للحق وانقيادا له، وغدت "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها".

فجاء ذلك المسلك تأصيلا لقيمة حرص عليها النبي الكريم، في تعامله مع الصحابة الكرام، ذلك أن عصمته عن الخطأ وتسديده بالوحي، وعلمه بمصادر الأمور ومواردها لم تجعله يستنكف إدارة دفة الحوار مع من

١- انظر د. طه جابر العلواني: أدلة الاختلاف في الإسلام ص٢٢- ٢٦ كتاب الأمة العدد٩ قطر ١٤٠٦هـ.

حوله، إقرارا بمبدأ الشورى في حياة المسلمين من بعده، ودفعا لغوائل الاستئثار بالرأي، ومصادرة حق الآخرين في الإفصاح عما يخامر أذهانهم، ويتفاعل مع نفوسهم، فكانت المواقف تجاه الأحداث المختلفة تجسيدا لروح الجماعة ومرئياتها المنسجمة والملتزمة بهدي النبوة(١).

وطبيعة الحق أنه يأبى أن يكون وقفا على فرد أو فئة أو جماعة، مهما تحققت بأسباب القوة واحتشاد مظاهر الغلبة والسطوع، ولكنه كثيرا ما يتأتى لفرد تزدريه الأعين أو فئة منسية أو جماعة مغمورة ويكون الظفر به رهن الإحساس الواثق أن في وسع أي إنسان أن يرشد إلى ما فيه الصلاح والسداد ما دام يشاطرنا الهم، ويسلك معنا الطريق ذاته، ويبتغي الهدف نفسه، متقيدا بتوجيهات الإسلام وضوابطه.

وطبيعة الإسلام أن فهمه واستلهام روحه وتمثل مقاصده لا يمكن أن يتحقق بها إلا من خلال السعي الموصل في مسالك الانتقاء الواعي، والالتقاط المسؤول لما تسفر عنه جهود الأمة، أفرادا وجماعات، في كل زمان ومكان، وهي تقيم حياتها على نحو ما أراده الله تعالى في كتابه الكريم، وإرساء رسوله الأمين في سنته المطهرة قولا وفعلا وتقريرا.

ومن هنا يبدو أن تنوع الأساليب والوسائل وتباين طرق الأخذ والفهم، هي في الواقع ظاهرة صحية تمكن للإسلام في واقع الحياة، وتستغرق نشاط الناس على اختلافهم، فيما يحفظ لهم إيمانهم، ويضمن لهم سلامتهم، ويزكي مسيرتهم ويرفدهم بعناصر القوة ويدفع بهم في مرامي الإحسان (٢).

وبالتالي فإن استئناف الحياة الإسلامية المثلى، يقتضي الانطلاق من أرضية التفاهم والتنسيق، وهو أمر لا يتحقق إلا بتعزيز الدور الإيجابي للحوار، الذي يمتد عبر مختلف المساحات، ويتوفر على كل الاهتمامات، من خلال تبادل الآراء، واستيفاء التجارب من الخبرات، وهو ما ينبغي أن يتداعى إليه الأفراد وجميع الفعاليات التي تضمها الأمة.

لقد أراد الإسلام أن يخطط للإنسان طريقه إلى الإيمان، من دون أن يفرضه عليه، فعمل على أن يقوده إليه، ويدله عليه من موضع ممارسته لإرادته، واستخدامه لفكره، لينطلق فيه على أساس حرية الإرادة وتحمل

١ـ حسن فضل المولى: التأكيد على فاعلية الحوار، مجلة الأمة العدد٥٩ قطر ١٤٠٥هـ

٢ـ حسن فضل المولى: التأكيد على فاعلية الحوار السابق.

المسؤولية باستبصار، وكذلك نهج نفس المنهج وسلك نفس المسلك في التواصل بين الأفراد والجماعات والشعوب والحضارات، فكان الحوار الذي يتمثل في إدارة الفكرة بين طرفين مختلفين أو أطراف متنافسة، وكان الجدال الذي يتجسد في إعطاء الحوار قوة العناد للفكرة والإصرار عليها، وكانت الحجج والبراهين التي يتجه فيها كل طرف من أطراف الحوار وجهته، وكانت كل هذه الأمور هي الطريق العملي لمواجهة الإنسان بقضايا الحق والباطل، ليؤمن بهذا ويكفر بذاك على بينة ما يؤمن أو يكفر به، كما جاء في قوله تعالى: "ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة" (الأنفال آية ٤٢).

وقد اتخذ الحوار وسيلة المسلمين الأوائل في مناقشة ومحاورة أصحاب الأديان الأخرى في عصر النبوة وما بعده، وكان هذا المنهج الفعال يزدهر دائما في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ويخبو ضوؤه في عصور الانحسار والضعف.

ولقد أصبح الآن ضرورة ملحة للتواصل بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وكذلك للتواصل مع أصحاب الحضارات المعاصرة في الشرق والغرب، وأصبح هذا النوع من التعاطي الفكري يصطبغ بالمجال الذي يستخدم فيه، والعلم الذي يتداول من خلاله، يقول الدكتور عبد العزيز التويجري(١) : "إن مفهوم الحوار في الفكر السياسي والثقافي المعاصر من المفاهيم الجديدة، حديث العهد بالتداول، ولعل مما يدل على جدة هذا المفهوم وحداثته أن جميع المواثيق والعهود الدولية التي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة، بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، تخلو من الإشارة إلى لفظ (الحوار).. فليس الحوار من ألفاظ القانون الدولي.. وعلى هذا الأساس، فإن الحوار مفهوم سياسي إيديولوجي ثقافي حضاري، وليس مفهوما قانونيا".

ولعل من أسباب شيوع هذا الشعار في أوساط ممثلي الأديان ـ في العصر الحديث خاصة ـ كونه لا يفصح ـ بحد ذاته ـ عن هدف مبيت، أو يوحي بتوجه معين، يمكن أن يُعد ملزما أو محرجا للمنادين به من الطرفين، فالحوار لافتة تخفي وراءها أشكالا متنوعة من المضامين ووعاء يمكن أن يحوي مواد متباينة، فقد يكون حوارا يقصد به التقريب بين الأديان.

١ـ المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (ايسيسكو): الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي ص٧ المنظمة الإسلامية عام ١٩٩٧م.

وفي نفس الوقت يستعمل مصطلح الحوار خارج نطاق دعوة التقريب بين الأديان، فيما يعرف بقضايا "التعايش"، وحينئذ فالأمر لا يتعلق بالدين من حيث هو دين، عقيدة وشريعة، ولكن بالعلاقات المعيشية البحتة بين معتنقي الأديان، وهو بهذا الاعتبار يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوب أو طوائف، وربما تكون أقليات دينية، ويعني بالقضايا المجتمعية كالإنماء الاقتصادي والسلام، وأوضاع المهاجرين واللاجئين، ونحو ذلك، ومن أمثلة هذا اللون من الحوار (الحوار العربي الأوروبي) و(حوار الشمال والجنوب).

وهذا الحوار بحد ذاته ـ بصرف النظر عما يصاحبه من تأطيرات قد تلحق بالأنواع السابقة ـ تفرضه الحياة البشرية، وحاجاتها الفطرية المختلفة، ومن ثم فلا غبار على الدخول في مفاوضات أو مداولات من هذا القبيل حسب ما تقتضيه السياسة الشرعية لمصلحة الأمة الإسلامية، وقد رافق هذا اللون من حوار التعايش نشأة الأمة الإسلامية منذ عهد النبوة، كما جرى في المعاهدات النبوية مع يهود المدينة وغيرهم ـ كما مر بنا ـ وزخر الفقه الإسلامي المؤسس على الكتاب والسنة بتراث ضخم في مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

الحوار مع أتباع الأديان الأخرى:

أو مفهوم "حوار الأديان" وهو عالم واسع ومتنوع الأهداف والمستويات، والمبادرة إلى رفضه أو قبوله مبدئيا يعتبر مغامرة غير محسوبة تختصر واسعا، وتنتقي وجها واحدا تحكم عليه بالسلب أو بالإيجاب وسط ظاهرة متعددة الوجوه. والتنوع الذي نتحدث عنه يتضمن الأطراف المتحاورة من رجال دين ،أو أكاديميين متخصصين في الأديان أو ناشطين في العمل الخيري، أو المهتمين بتعظيم دور الأديان في نواحي الحياة المختلفة، أو خليط من هؤلاء وأولئك.

وأهداف الحوار أيضا تختلف، فهناك حوارات تبحث عن تفاهم متبادل وتعارف أعمق، وهناك أخرى تبحث عن القيم المتفق عليها، وهناك حوارات تبحث عن موقف مشترك من قضية بعينها، وهناك حوارات ذات أغراض سياسية و .. وهكذا.

وأساليب الحوار تختلف، وطريقة "استدعاء الدين" أيضا تختلف ؛ فهو يُستدعى كتجربة روحية أحيانا، ويستدعى كتاريخ وممارسة أحيانا أخرى، ويستدعى كنصوص مقدسة أحيانا ثالثة، أو كقيم مجردة، أو كواقع حي يومي يتحرك على أرض الواقع.

ويختلف الحوار في نطاقه واتساعه الجغرافي بين المحلي والإقليمي والدولي، وفي تحديده للأديان، فقد يقتصر على الأديان السماوية المسماة بـ"الإبراهيمية"، وقد يتضمن ديانات أخرى مثل: الهندوكية والبوذية وغيرها، وقد يكون داخل دين واحد بين مذاهب وطوائف شتى أو دين ودين آخر، أو بين عدة أديان في وقت واحد(١).

تجربة الفريق العربي الإسلامي المسيحي للحوار:

وهي تجربة تركز على المنطقة العربية، والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين فيها، وأبرز ما في خبرة هذا الفريق حديث النشأة أنه استند إلى خبرات أعضائه الثرية، فاجتنب الخوض في المسائل اللاهوتية وتحاشى استهداف محاولات التقريب العقائدي، كما ابتعد عن التسييس، واعتمد أسلوبا للتركيز وصل به إلى إنجاز ميثاق مكتوب لفلسفة وتوجهات الحوار من أجل العيش المشترك.

ولكن من زاوية أخرى يعيب البعض على الفريق محدودية نطاق عمله جغرافيا، ففي لحظة اختلطت الأبعاد الإقليمية المحلية، والدولية، قد تكون محاولة إسقاط ما يحدث في العالم، والاقتصار على تجلياته على المستوى الإقليمي فقط نوعا من الفصل المتعسف بين أمور هي متداخلة بطبيعتها، وطبيعة المرحلة.

وهناك تردد شديد ـ وبخاصة في صفوف المسلمين ـ وتحفظات كثيرة بشأن الاهتمام بحوار الأديان، والدخول في أنشطته ودوائره، وأغلب التحفظات مبنية على أساس إدراك يحتاج إلى إعادة نظر في حد ذاته. فهم ينظرون إلى الغربيين مثلا بوصفهم "أهل كتاب" وبأن الحوار معهم لا طائل من ورائه، وأن الإسلام بوصفه الدين الحق لا يحتاج إلى الحوار مع أهل الباطل إلا إذا اعترفوا به وسلموا له ...إلخ.

وهذا منطق خاطئ وإدراك معيب أصلا يتجاهل آيات قرآنية تدعو للجدل بالحسنى، ويسقط التاريخ من حساباته فيتخبط في رؤية الواقع ويتسرع في إصدار أحكام على أسس خاطئة. ففي التطور التاريخي الغربي تخلصت أوروبا من سلطان الكنيسة الدنيوي/ الزماني، وفصلت بين الكنيسة والدولة، وتدريجيا تخلصت من

١ـ د. أحمد عبد الله: حوار الأديان ..أسئلة مشروعة وإجابات صعبة ص٢٠ مجلة رؤى العدد١٦ باريس، المركز الحضاري بباريس عام ٢٠٠٢م.

سلطان الكنيسة الديني نفسه، فذهبت تبحث عن عقيدة دينية خارج أسوار الكنيسة التي رأتها عالية، وخارج عادة القساوسة التي ارتأتها ضيقة (١).

أديان الكنائس التقليدية لا يعتنقها اليوم أغلب الناس، فضلا عن انتشار الفرق والطوائف، والانقسامات التي تقيم كل واحدة لنفسها كنيستها الخاصة بها، أو لا تقيم كنيسة من الأساس، وهناك حركة هجرة وعزوف عن التيارات الكنسية الأساسية تاريخيا إلى أفكار ومعتقدات بعضها يتضمن تركيبا من عقائد تنتمي إلى أديان مختلفة، وقد تسمع عن جماعات دينية تبحث عن حقيقة إبراهيم، أو عقيدة نوح أو غير ذلك.

هناك ـ كما يقول الباحث أحمد عبد الله (٢) ـ حركة دائبة للبحث والمراجعة والتقليب والنقاش ترتكز على أهمية مبدئية للدين، ولكنها تضرب في كل اتجاه بحثا عن الحق، وفي نفس الوقت يصر العديد من المسلمين على إدراك ناقص مشوه لكثير من الأفكار ودوائر الحوار بوصفها وجها من وجوه المؤامرة التي تستهدف الإسلام .. ويتعاملون معها من قبيل"الاختراق" و"الدسائس".

الدين بالمفهوم الذي نعرفه ونعيشه فارق حياة ملايين البشر حول العالم، وهم يبحثون عن روحانية تتجلى في الفنون، أو علوم النفس، أو الغيبيات، ويبحثون عن طقوس عبادية تريحهم من عناء المادية القاسية التي تسحق سحقا، ويبحثون عن اجتماع مع آخرين على حدود معقولة من القيم والمعاني الأخلاقية والسلوكية والترابط الأسري والاجتماعي.. وهذا كله يجد تعبيراته السياسية في المجتمعات التي تنتخب ممثليها، وتضع فيها الناس برامج أحزابها.

وكثير من المسلمين لا يرى الصورة بمجملها، ولكنه قد يرى موقفا أخلاقيا محافظا ـ من قضية بعينها ـ يتبناه فريق أو تقول به جماعة ضغط معينة فيحسب أن هؤلاء أقرب لموقف الإسلام والمسلمين كليا، والأمر أعقد من هذا بكثير، ولكن أغلبنا لا يعلم هذا ولا يستوعبه.

١ـ د. ميلاد حنا: قبول الآخر، ط ٤، الإعلامية للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٢ م.

٢ـ السابق ٢٤.

ومن هنا نرى ضرورة الانتقال من "النخبوية" إلى القاعدية، دون أن يعني ذلك التقليل من أهمية دور النُخب، إلا أن الدخول بالحوار في قطاعات أخرى، ومستويات متعددة ،أصبح ضرورة لازمة لخلق حالة حوارية عامة تنضج عقلية ناقدة مرنة متفاعلة تتجاوز التلقين والتقليد والترديد الشائعة في تلقي العلم، وتداول المعرفة في المشكلات الواقعية ونمو التعارف والتواصل العميق الذي يحترم التنوع ويستثمره لمصلحة الجماعة الوطنية بدلا من أن يكون هذا التنوع سببا ومقدمة للشقاق والحرب الأهلية المسلحة و(الثقافية).

الانتقال إلى القواعد يعني الانتقال من الطابع الاحتفالي لحوارات الأديان إلى إيقاع يومي نشيط ومن بين أهم مسارات نقل حركة الحوار من النخب إلى قطاعات الناس يبرز "عالم الدين" بوصفه جسرا يسير في اتجاه واحد فقط فوق هذا الجسر.

"ثقافة الداعية" سؤال كبير في هذه المرحلة لأنه لا يكفي أن يعلم الناس شؤون دينهم، بل ينبغي أن يستوعب تعميق شؤون دنياهم، ويكون نافذة لهم على العالم، كما يكون باباً من أبوابهم إلى العلم النافع في يومهم أي: معرفة زمانه واستقامة طريقته. ولا ننسى أن الذي يهمنا في مجال مسألة الحوار هو التركيز على الدين بوصفه ثقافة، وتجليات للحياة المادية، كما هو نظام اعتقادي أو روحي.

لقد أصاب الجانب الثقافي للدين ضمور شديد عند المسلمين مثلا، حتى إن أغلبهم لا يعرف تاريخ ما بعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو الفنون الحضارية الإسلامية في حُقبها المختلفة، وكيف عاشت هذه الحضارة وعمرت الأرض، وقادت دفة توجيه البشرية لعدة قرون، وكيف أثرت وتأثرت بغيرها مما حولها من ثقافات وحضارات.. وغياب هذا الإدراك حوّل المسلم المعاصر بلا ذاكرة ثقافية حضارية، وجعله ـ بالتالي ـ عاجزا عن التواصل مع عصره أو غيره إلا كفاقد ذاكرة يكاد يكون كاللقيط الذي يبحث عن أصله ونسبه! وانتقال الحوار من العقائد إلى الثقافات سيدفع المتحاورين إلى مراجعة ما انطمس في وعيهم من ذاكرة العمران البشري بآدابه وفنونه وإنجازاته، فتخرج من المتحف إلى عقول المسلمين وحياتهم ومجالسهم.

فإذا توقفنا عند الدعوة الإسلامية، وأسلوب حوارها مع الغرب أو الآخر، فإننا نجد أن الإسلام دين شامل، دين الله الذي لا يقبل دينا سواه، ونبيه، محمد صلى الله عليه وسلم، رسول الله وخاتم النبيين، وكتابه القرآن مهيمن على الكتب السابقة وناسخ لها، فمن ثم كانت دعوة الإسلام دعوة للناس كافة، عربهم وعجمهم،

أميهم وكتابيهم، وليست حكرا على قومية معينة، أو رقعة جغرافية محددة، فليس من شأن الإسلام أن يوصد أبوابه، ويقطع الجسور بينه وبين أمم الأرض إما بدافع الاستعلاء أو بدافع الخوف من الاختراق الخارجي، كلا! بل الأمر على نقيض ذلك تماما، فإن إيمان المؤمن، بحد ذاته، وخيرية الأمة بمجموعها لا يتمان إلا بالانفتاح على الآخرين، والتواصل مع مختلف الأجناس والشعوب، لتحقيق هدف نبيل، وغاية سامية، هي هداية الخلق ونفع البشرية.

إن التقوقع والانكماش والانكفاء على الذات صفات لا تتفق مع طبيعة النفس المؤمنة، ولا مع مشروع الأمة المسلمة ودورها في إصلاح البشرية، والنصوص الشرعية في بيان فضيلة الدعوة إلى الله، وهداية الخلق كثيرة متوافرة، تكشف عن روح الإيجابية والعطاء والمبادرة البناءة.

قال تعالى: "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين"(فصلت آية٣٣). وقال تعالى: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"(يوسف آية ١٠٨). وقال تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"(النحل آية ١٢٥).

وقال تعالى: "فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم"(الشورى آية ١٥). وقال في شأن الأمة جميعا: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"(آل عمران آية ١٠٤). ثم امتدحها بقوله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران آية١٠١). فأنى لهذه الأمة التي شهد لها رب العالمين بالخيرية، وقام سوقها على دعوة الخلق إلى سبيل الرشاد من الانغلاق والتقوقع والسلبية؟!

ولكن انفتاح هذه الأمة الراشدة على سائر الملل والنحل انفتاح مبصر، وليس انفتاحا أعمى، انفتاح من يحمل المفتاح، ويرفع شعلة النور أمام الناس، قال تعالى: "أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس" (الأنعام آية ١٢٢). وليس انفتاح البحث المشترك عن الحقيقة، فالحقيقة محفوظة لم تغب: " قل إني على بينة من ربي" (الأنعام آية ٥٧). ولكنه انفتاح التعريف ومحاولة التواصل على قواسم المشترك والإنساني.

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب خطابا صريحا مباشرا بصيغة النداء :"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"(آل عمران ٦٤).

وتعددت نداءاته لأهل الكتاب سبعة عشر خطابا في كتاب الله، مع عطف عليه من آيات أُخر، أو جاء على غير صيغة النداء، وذلك يدل على مزيد العناية بأهل الكتاب لأنهم أقرب نسبا وسببا بالمؤمن، فحري بأهل الإسلام في كل زمان ومكان أن يترسموا هدى القرآن ويدعو إلى ما دعا إليه، ويعظموا ما عظمه، ويقدموا ما قدمه، وألا يلتفتوا إلى مسالك أخرى ليست من هديه ودله.

وتجسد **المنهج الإسلامي في الحوار** مع أصحاب الديانات الأخرى بقوله تعالى:" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل آية ١٢٥). وهي **ثلاثة أساليب أو مناهج قرآنية** جمعت أمر الحوار برمته، فهذه الجمل الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، قد فصلت بأساليب شتى في مثاني القرآن العظيم، وتنوعت هذه الأساليب تنوعا كثيرا، لتكون منهجا للدعوة إلى الله في كل زمان ومكان في مخاطبة أهل الكتاب، ومخاطبة كل مستويات الوعي والإدراك الإنساني ابتداء بالعامة وانتهاء بالمفكرين والحكماء والفلاسفة، مسايرة لروح الخطابة والوعظ والإرشاد، وتدرجا مع مسالك العلم والبرهان والحكمة.

وتعددت أساليب القرآن الكريم في الدعوة والحوار مع أصحاب الديانات السابقة، وأهم هذه الأساليب(١):

١ـ أسلوب المبادأة الواضحة: قال تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا بأنا مسلمون" (آل عمران آية ٦٤).

١ـ انظر د.أحمد عبد الرحمن القاضي: الحوار مع أتباع الأديان الأخرى في عصر العولمة ص٣٨ـ ٤٨ المؤتمر الإسلامي الرابع (الأمة الإسلامية والعولمة) عام ٢٠٠٢م.

إن أخذ زمام المبادرة في مخاطبة أهل الكتاب ينبغي ان ينشأ من الجانب المسلم، فينادي غيره، ويجمعهم ليلقي عليهم دعوته الواضحة الصادقة، كما يدل النداء في هذه الآية، ولطالما شكا المشتغلون بالحوار الإسلامي النصراني بصفته المعاصرة من كون المبادأة تأتي غالبا من الجانب النصراني، وأن المحاورين المسلمين يساقون دون تخطيط مسبق، وأهداف واضحة، من جانبهم، عبر قنوات ومسالك رسمها لهم سلفا محاورهم من أهل الكتاب، وهذا في الواقع ليس بمستغرب لأن دعاة التقارب من المسلمين جفوا المنهج الشرعي القائم على دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء فلم يبق لهم ما يدلون به على الآخرين، فأهل الإسلام لا يستقيم أمرهم ولا يعبرون بصدق عن دينهم إلا أن يكونوا أصحاب مبادرة، وغاية واضحة، وخطة بينة، كما دلت عليه هذه الآية العمدة، وإلا تقاذفتهم ألاعيب الذين كفروا من أهل الكتاب ومبادراتهم العبثية الموسومة بالتقارب والحوار ونحوها.

٢ـ أسلوب العبرة والتذكرة: قال تعالى: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فجعلناها نكالا لما بين أيديها وما خلفها وموعظة للمتقين"(البقرة آية ٦٥، ٦٦). وقد تضمن القرآن الكريم ثلاثا وعشرين واقعة مصدرة بكلمة(وإذا) الظرفية، تذكر أهل الكتاب من يهود ونصارى، بما جرى من أسلافهم مع أنبيائهم، وعواقب ذلك، لا لمجرد القصص، وإنما للتذكير والاعتبار والاستبصار، حتى لا يقيموا فيما وقعوا فيه وتحل بهم المثلات، فينبغي اعتماد هذا الأسلوب القرآني في مخاطبة أهل الكتاب، لأن الاستشهاد بحقائق التاريخ والتذكير بدروسه وعبره من أقوى وسائل التأثير.

٣ـ أسلوب الإغراء والترغيب: قال تعالى: "ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"(المائدة ٦٦). وهناك أمثال هذه الآية كثير في القرآن، وهذا الأسلوب من أنجع الوسائل والأساليب وأدعاها إلى قبول الحق والاغتباط به، ففيه من الترغيب والإغراء ما يحفز أصحاب الهمم العالية، والنفوس التواقة إلى الكمالات وإلى استشراف الهدى بنفس مستبشرة طامعة بفضل الله ورحمته.

٤ـ أسلوب التحذير والترهيب: قال تعالى: "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا اله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم" (المائدة ٧٣). وهناك آيات كثيرة للتهديد والوعيد والتحذير، والتي ترتجف لها القلوب، فتحملها على إعادة النظر فيما تعتقد وتقول وتعمل، فإذا لم يحفزها حافز الترغيب، ردعها رادع الترهيب.

٥ـ أسلوب التوبيخ والنكير: قال تعالى: " يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون" (آل عمران آية ٧٠، ٧١). ولا يزال أهل الكتاب مقيمين على ما وبخهم الله، وأنكره عليهم من الكفر بآيات الله كفاحا مع قيام الحجة، ولبس الحق بالباطل، والصد عن سبيل الله، فلابد من استمرار النكير عليهم وتبكيتهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد تأسيا بكتاب الله.

٦ـ أسلوب المحاججة والنقض: قال تعالى: "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" (البقرة آية ١١١). "ما المسيح ابن مريم إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم" (المائدة آية ٧٥، ٧٦).

وهذا في كتاب الله كثير، ولم يزل نهج المؤمنين بالقرآن الكريم من سلف هذه الأمة، من تصنيف الكتب، وعقد المناظرات، وتدبيج المقالات في نقض هذا المسلك، قال ابن القيم في فقه قصة وفد نجران: " ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه، إذا ظهرت مصلحة من إسلام من يرجى إسلامه وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله"(١).

ويؤكد لنا الدكتور "عمر عبيد حسنة" كثيرا من المفاهيم المتصلة بالحوار وضرورته حين يقول إن "الحوار الحضاري أو الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتوسيع دائرة التفاهم، وإبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم، التي إنما جاءت لاستنقاذه، وإيصال دين الله إليه، بأفضل الوسائل، المجادلة بالتي هي أحسن مع مراعاة أدلة الحوار وشرائطه.. فهو من الفروض الشرعية الكفائية، التي تعتبر من مسؤولية الأمة جميعها... إن الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي للوصول إلى قناعات معينة، أو للوصول إلى صيغ مشتركة للتفاهم(٢) والتعاون، هو مطلب إسلامي، وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين، إذا توافر للحوار شروطه، من إتاحة الفرص المتكافئة، وتحرير موضوع الحوار، والالتزام بآدابه، وأخلاقه، بل هو أكثر من مطلب إسلامي، أو أحد خيارات المسلم، إنه تكليف شرعي، يقع تحت مدلول قوله تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

١ـ ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٦٣٩.

٢ـ د. نعمان عبدالرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، كتاب الأمة العدد ٨٠ قطر ١٤٢١هـ

وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل آية١٢٥). ذلك أن الدعوة إلى دين الله، وسبيله، محلها ابتداء: "الآخر"(١)، بل ويضيف الدكتور عمر عبيد حسنة، أبعادا أخرى للحوار حين يقول: "وأحسب أن المبادرة بالحوار والدعوة إليه يجب أن تبدأ من عند المسلم، وأن يكون المسلم أكثر حرصا عليها من الآخر، ولعلي أرى في قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" (آل عمران آية ٦٤). تكليفا شرعيا لا يخص عصرا بعينه، ولا حادثة بعينها، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيدا لخلود النص، وتجرده عن حدود الزمان والمكان... فمقتضى خلود النص يعني: أن التكليف جار وقائم في كل زمان ومكان... والدعوة إلى الحوار واللقاء بالآخر، ومحاجته بالتي هي أحسن وظيفة المسلم، لإلحاق الرحمة بالناس.. وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين، وتجربة تاريخية فذة، وشخصية حضارية وثقافية، تجعله في موقع مكين، يدفعه الى الإيجابية، وطلب الحوار، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداء، ذلك أن الآخر سوف يتأثر على كل حال .. ولا أرى عذرا، ومصلحة في إقفال باب الحوار مع الآخر، أو نفيه، أو إلغائه، مهما كانت الأسباب، أو ترك المبادرة له، لتنظيم ندوات الحوار، وتحديد أهدافه، وموضوعه، فقضية الحوار مع الآخر، وإعادة النظر بمواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر وأدوات توصيله، ووسائل إبلاغه على مختلف الصُعُد، لم تعد خيارا للمسلم، في عصر ثورة المعلومات والاتصالات وتطور وسائل الإعلام، حتى يكاد العالم يصبح قرية إعلامية صغيرة، وحيث امتدت الأصوات في الدعوة إلى الحضارة الواحدة، والنظام العالمي الجديد.

وأخيرا لابد أن تعمل المؤسسات الدينية الرسمية وأقسامها المهتمة بالحوار جنبا إلى جنب مع الفعاليات الأهلية النشطة فيها .. واحتكار المؤسسات الرسمية يضر الحوار ولا ينفعه، وكذلك فإن التضارب وعدم التنسيق يبدد الطاقات، ويشتت الجهود، وينخفض بالنتائج إلى ما دون مستوى المقدمات والتوقعات. ويستلزم هذا التعاون تنمية وتطوير القطاع الأهلي الذي يعاني من التهميش، وأحيانا الحصار ومحاولات الإلغاء.

ونحن نرى أن دعوة السيد"خاتمي" لحوار الحضارات جاءت متسقة تماما ومتصلة بأطروحة حول "المجتمع المدني"، ويظل الرهان الأهم حول كيفية إدارة عملية التنمية والتطوير للقطاع المدني في ظل ثقافة

١ـ تقديم كتاب الإسلام وصراع الحضارات للدكتور أحمد القديدي، كتاب الأمة العدد ٤٤ قطر عام ١٩٩٥م.

ومؤسسات تعودت الاحتكار والاستقلال بالفعل، بدلا من الشراكة، وتقسيم الأدوار، ونحسب أنه لو تحقق نجاح التجربة الإيرانية في ولادة "مجتمع مدني" قوي ومستقل عن أجهزة الدولة، ومتعاون معها في الوقت نفسه، فسيكون دافعا وقدوة للآخر، ومقدمة لازمة لتهدئة مخاوف العديد من الأنظمة تجاه أنشطة "المجتمع المدني" في أفكارها، وسيكون دافعا كذلك للعديد من الناشطين الحركيين من ذوي التوجه الإسلامي للاهتمام بحركة المجتمع المدني، والمشاركة فيها بدلا من موقف التحفظ أو عدم الاكتراث الغالب عليهم حتى الآن(١).

وعلينا توجيه الانتباه من حوار الكتل الحضارية إلى حوار القيم الحضارية، فمقولة "حوار الحضارات" تفترض تجانسا وهميا داخل كل حضارة من الحضارات التي صنفها "هنتنجتون" - على ما سنعرف بعد قليل - وإذا نظرنا داخل الحضارة الإسلامية - مثلا - فالنظرة مدهشة حين خرجت في أمريكا مظاهرات ضد الحملة الأمريكية على أفغانستان، وجمهور هذه المظاهرات من نُخب المواطنين النشطين في حركات حقوق الإنسان مناهضة العولمة، ومن مجالها الجغرافي والسكاني فسنجد أعدادا ليست بالقليلة تنتمي أكثر إلى حضارة المادية والاستهلاك، وفي قلب الحضارة الغربية أعداد غفيرة ترفض منطق القوة والمادة وأولوية اللذة العاجلة وغيرها من توجهات التيارات الأساسية لتلك الحضارة، وقد بدت المفارقة بين أنصار الحريات المدنية، في حين خلت هذه المظاهرات تقريبا من حشود العرب والمسلمين أول المتضررين من تصرفات الإدارة الأمريكية في أعقاب هجمات ١١سبتمبر، بل إن بعض المنظمات التي تمثل المسلمين هناك أيدت موقف إدارة الرئيس "بوش" وحملته - على الأقل في بدايتها - دون تحفظات تذكر، حيلة أو خوفا أو "تقية".

ولذلك يقول الدكتور "أحمد عبد الله"(٢): ونحن نرى أن التصنيف الحضاري ينبغي أن يكون على أساس القيم الحاكمة للتصور، والانحياز العملي بالتالي، فالذين رفضوا الانتقام وحل النزاعات بالقوة المسلحة والهجوم العسكري دون أدلة.. هم طرف واحد رغم انتمائهم لدوائر جغرافية شتى، ورغم تباين خلفياتهم الثقافية، ولغاتهم المنطوقة.

أما أنصار العنصرية، أو قتل المدنيين بلا تمييز عقابا لحكوماتهم، واستخدام العنف كلغة عالمية بشأن الخلافات والصراعات بغض النظر عن نتائج هذا الاستخدام وتداعياته.. فهؤلاء أيضا يمثلون طرفا آخر هو واحد

١- السابق.

٢- د.أحمد عبد الله: إشكالية الحوار ص ٢٧ مجلة رؤى العدد١٦ باريس ٢٠٠٢م.

رغم تباين الشعارات وتنوع الرموز والمظاهر، ونحن نتحدث عن"حوار الحضارات" بين هذين الطرفين بدلا من حوار وهمي بين كتل حضارية غير متجانسة أصلا.

تتسع أجندة مثل هذا الحوار لتشمل الموقف من الأسرة ومن الحريات المختلفة وقضايا العدل والحرية إلى آخره، ولا ندعي أننا سنكون أبدا ضمن كتل متجانسة، ولكننا نطمح إلى تحالفات جزئية أو كلية حول قيم واضحة وهموم مشتركة، واختيارات محددة في المجالات الاجتماعية والثقافية والتنموية، وهذا في حقيقة الأمر يفتح الطريق أمام"حوار الأديان" و"حوار الحضارات" على الأفق الطبيعي الهام الذي ينبغي الانفتاح عليه، وهو أفق "حقوق الإنسان" وآفاق ما يسمى بمناهضة العولمة، وهذا الانفتاح هام ونافع، ولن يكون إلا إذا تخلينا عن أسطورة الكتل الحضارية المتجانسة والمتخيلة في أذهان الكثيرين ممن يتحدثون عن"حوار الحضارات".

الحضارة بين الإسلام والغرب:

وهكذا فقد عرفنا الحوار وأسسه ومكوناته، وموضوعاته وأساليبه التي ينبغي اتباعها لتحقيقه، أما الحضارة، فتعني الإقامة في الحضر، وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر(١).

وجاء في "القاموس المحيط" أن معناها ضد (غاب) والحاضرة والحضارة خلاف البادية(٢). وجاء في لسان العرب مجموعة المعاني التالية: الحضور نقيض المغيب والغيبة. وبمعنى (عنده) نقول: كنا بحضرة ماء، ورجل حاضر. قرب الشيء: الحضرة، وتقول: كنت بحضرة الدار. الحضر خلاف البدو، والحضارة الإقامة في الحضر، الحاضرة: الحي العظيم (٣).

هذا في اللغة العربية، وأما في اللغة الإنجليزية فكلمة حضارة Civilization مشتقة من كلمة Civilas في اللاتينية بمعنى المدينة، أو من Civils بمعنى ساكن المدينة، أو من Civilis بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة حيث تقوم الحياة العصرية عادة في المدن(٤).

١ـ المعجم الوسيط مادة "حضر".

٢ـ الفيروز أبادي: القاموس المحيط مادة (حضر).

٣ـ ابن منظور: لسان العرب مادة (حضر).

٤ـ د. أحمد محمود صبحي: في فلسفة الحضارة، مؤسسة الثقافة الجامعية ص٣ بدون تاريخ.

ويستخدم بعض العلماء في مقابلة كلمة حضارة كلمة Culture التي تعرف في العربية بلفظ (الثقافة) وهذا الأخير من ناحية اشتقاقه اللغوي مأخوذ من اللاتينية ويراد به إصلاح الشيء وتهذيبه وإعداده للاستعمال، ومن هنا قالوا: Agricultare أي إصلاح الأرض وزراعتها، أي أن الثقافة فن تهذيب العقل... ومن ثم فإن لفظ Culture يفيد طريقة شعب ما في الحياة، ومجموعة أنظمته وكذلك نظرته إلى الحياة والكون (١).

وهناك كثير من التعريفات للحضارة بعضها تعاريف انثروبولوجية وفلسفية وتاريخية وحضارية. فذهب "ول ديورانت" المؤرخ والمفكر الأمريكي إلى أن الحضارة هي"نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، والحضارة تتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، والتي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق"(٢).

ويعرفها"ألبرت شفيتزر" بأنها "التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء"(٣). ويرى "أرنولد توينبي" أنها"حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة، وليست وقائع ثابتة وجامدة، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف على ميناء"(٤).

أما ابن خلدون فيعرف الحضارة بأنها نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير.. فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضا، كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها(٥). أما "مالك بن نبي" فيلسوف الحضارة الإسلامي فيقول فيها :"إنها مجموع الشروط الأخلاقية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده ؛ منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له".

والحوار المقترح هو حوار بين "الحضارة الإسلامية العربية" وبين الحضارة الغربية، المهيمنة على عالم اليوم، وحين نقول: "الحضارة الإسلامية العربية" لأن هذه الحضارة قد امتلكت المقومات الحضارية قبل نشأتها

١ـ السابق ص ٤.

٢ـ ول ديورانت: قصة الحضارة، نشرة جامعة الدول العربية ١/ ٤ عام ١٩٥٧م.

٣ـ ألبرت شفيتزر: فلسفة الحضارة ص ٣٥ ـ ٣٧ القاهرة، بدون تاريخ.

٤ـ نقلا عن فلسفة الحضارة ص ٢٦٧.

٥ـ ابن خلدون: المقدمة، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، ص٤٧٥ دار نهضة مصر بدون تاريخ.

الأولى وأثناء بنائها وسيرورتها، واحتوت على خصائصها العمرانية، وبذلك التداخل المتميز بين العربية والإسلام الذي جعل منها حضارة تأليف لا تدابر، وحضارة احتواء واستقطاب دون تسلط، وحضارة جمع دون دمج أو هيمنة، وحضارة سلام وأمن لا استعلاء فيها ولا استقواء، وحضارة إصلاح وعمران لا تخريب فيها ولا إفساد، وهي تؤمن للمنتمين إليها كرامتهم دون النظر إلى أية فوارق ؛ لأنها منذ البداية وضعت سائر الفوارق في إطار التنوع الداعي إلى التعارف والتآلف حتى صارت حضارة عمرانية عديمة النظير (١).

فهي حضارة بنيت على(التوحيد) فكان التوحيد جوهرها وأساسها، ومن منطلق التوحيد توجهت نحو "الحقيقة الذاتية للإنسان"(٢)، فاعتبرت الإنسان بوصفه إنسانا مجردا عن كل وصف لاحق لإنسانيته كفئا للإنسان، وهو (بإنسانيته) مركز الكون، والمستخلف في الأرض، والمكلف بحمل أمانة العمران فيها، الذي سخر الكون ـ كله ـ له، وليمكنه الخالق العظيم بذلك من الوفاء بالعهد والقيام بمهمة الاستخلاف، وحمل أمانة العمران والاختيار.

إن (التوحيد) و (التزكية) باعتبارهما أعلى القيم الحاكمة التي جاء القرآن المجيد بها قد قاد إلى إيجاد إنسان رسالة قد اكتسب وضعا منسجما مع ذاته، جعله آمنا على نفسه، مدركا لدوره، عالما بغايات وجوده، مطمئنا على رزقه الحسن، وإلى أن ما ينفقه سوف يحصل له على البدائل، فهو ينفق منه سرا وجهرا، يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، يسلكه في سيرة مباركة لتحقيق "العمران" باعتباره القيمة الإسلامية العليا الثالثة التي تقف بجانب **التوحيد والتزكية**، فالتوحيد حق الله على العباد الذي ينعكس على مختلف جوانب النشاط الإنساني بالانسجام والتوافق، وتحقيق الأمن مع النفس ومع الغير، والتآلف بين الإنسان والكون، وإيقاظ الفطرة الإنسانية السوية، وإنماء القدرة على النظر العقلي"(٣).

وحضارتنا الإسلامية العربية بهذه القيم العليا وبانعكاسها على الإنسان بمدركاته ووسائل إدراكه، وبتأثيرها على غاياته ومقاصده ووعيه وسلوكه وتكوينه العقلي والنفسي: تفارق سائر الحضارات الأخرى التي عرفتها

١ـ مالك بن نبي: آفاق جزائرية ص ٣٨ مكتبة عمار ط ٢ القاهرة عام ١٩٧١م.

٢ـ محمد طاهر بن عاشور: روح الحضارة الإسلامية ص ١٩ الجزائر عام ١٩٨٠م.

٣ـ المرجع السابق ص ٦.

البشرية، خاصة تلك الحضارات ذات المضمون العرقي أو العنصري والقومي؛ لأنها ـ كلها ـ تنشأ في صراع ولا تنمو ولا تزدهر إلا في غمار الصراع لتحقق تسلط الجماعة العرقية أو العنصرية أو القومية وعلوها في الأرض وهيمنتها على من عداها حتى ولو اقتضى ذلك إهدار حقوق الآخرين وتدميرهم إذا لزم الأمر.

تأخذ المدارات الحضارية ركيزتها الأساسية في الإسلام من الدوافع المتتابعة التي تدور في فلك إطلاقات قرآنية تشكل جاذب الأفعال والحركات وغائيتها، بحيث تنشأ الحضارة كتلاق جمعي للعلاقات الخاصة التي يظهرها الإنسان مع الوجود، وهو ما يتسع ويضيق وفقا لحركة الإنسان. وذلك من الاندثار إلى الاستيعاب الكوكبي، ويمثل هذا المستوى الحد الإسلامي الممكن والمحثوث عليه، ولذلك فهو الكامن في صلب الرؤية الإسلامية التي تطاول الإنسان كنوع والأرض كمدى لطاقاته وفعله. ومن هنا تنسج خيوط التوحيد الأولى.

يضطلع الإنسان في الإسلام بدور خليفة الله في الأرض(١)، الذي سخر له جميع ما في السماوات والأرض(٢)، حيث اختصه الله بالإكرام (٣)، وهو ما يشكل حماية للإنسان واحتراما له، لأنه ينصب على تميز مسؤوليته عن باقي المخلوقات بحرية الاختيار، ومن هنا فهذا المخلوق هو الوحيد الذي يحمل الأمانة الإلهية ذات البعد الكوني(٤)، إن ربط الخلافة مع الاستئمان يجعلنا أكثر ملاحظة للمركزية الحضارية الإسلامية وذلك في أبعاد عدة:

ويقوم **البعد الأول** على نزوع الإنسان إلى الواقع الموضوعي وقدرته على التصرف في الموجودات الكونية، ما يكشف عن ارتباط جوهري بين الإنسان والعالم، فمكانته في العالم ذات بُعد جوهري لا عرضي، والكون ليس سرا مغلقا على الإنسان، وهو ما يعني قدسية العالم وموجوداته كمجلى لغائية الإنسان وسر وجوده، مثلما هو كسر للثنائية بينهما، وفي ذلك أهمية فلسفية فاعلة ماضيا وحاضرا(٥).

١ـ سورة البقرة آية ٢٣.

٢ـ سورة الجاثية آية ١٣.

٣ـ سورة الإسراء آية ٧٠.

٤ـ سورة الأحزاب آية ٧٢.

٥ـ التأسيس للفصل بين النفس والجسد الذي ابتدأ مع أفلاطون وانتهى مع تقعيد البنيان الغربي المعاصر مع ديكارت ومرورا بالمانوية والأوغسطينية، وكل المذاهب المتفرعة عن الأفلاطونية.

أما البعد الثاني فهو وحدة الكائن البشري في محتواه الداخلي، وفي حركة الإنسانية ووحدة المجتمع الإنساني في نظمه واتجاه حركته. إن وحدة الإنسان تنبثق من بوتقة النفس الواحدة التي خلق منها (١)، ومن النسق القيمي المأخوذ كمقياس خفي لانسياب الفعل البشري وآثاره وهو الفطرة المركوزة فيها أدلة التوحيد والعدل(٢).

ويكتمل النسق عندما تترامى على مساحات الوجود ارتياد الفعل الإنساني واحدا يطاول المعمورة، لتنزاح ستارة الوجود عن تفاعل لا ينتهي بين الإنسان والمحيط بكل ما فيه من كمون يتأتى بالعمل الحثيث لما يُستنبت من أدوات التعاطي العقلي، حيث التغير المستمر في الأشياء، فكل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر في داعية يدعو إليه، وعن كل داعية ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، إذ لا انفصال بينهما، وكل قبيل عماد للآخر، حيث أول العمل آخر الفكر وآخر الفكر أول العمل(٣).

وتأسيسا على هذا الفهم الذي يجنح إلى إقامة علاقة شاملة بين الله في مطلقه والإنسان بما هو عليه من طاقة، يمكن ملاحظة واقع الإنسان الوجودي الذي يصل إلى نسق توحيدي.

إن شهادة الإسلام الأولى تنبثق من طبيعة الإنسان الحقيقية التي يدرك بها أن لا إله إلا الله كحقيقة مطلقة وواحدة، وجميع الأمور نسبية خارج كيانه، وغاية العقل الإنساني هي الكدح لله، كما تُرى في الدعوة القرآنية(٤)، التي تصل إلى الإمساك بالمثال ممتزجا بالواقع في دائرة السلوك الإنساني الرباني: "ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون"(٥).

٢- سورة النساء آية ١٨٥.

٣- سورة الروم آية ٣٠ "فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها".

٤- يقول الباحث د.محمد صادق فضل الله لقد بدأ هذا التأسيس ضمن الفكر الأخلاقي، فهو صنيعة فلسفة الفارابي السياسية، وما أتى عليه تأسيس مسكويه الأخلاقي في التهذيب، والمتلقف المهم للدور الجديد للفلسفة الإسلامية على يد النصير الطوسي في "أخلاق ناصري" ومن هنا أهمية اختيار الأفغاني لهذا الأفق على أعتاب القرن العشرين متماسا مع الغرب .. انظر النص الفارسي لأخلاق ناصري ص ٣٩، والأعمال الكاملة للأفغاني. تحقيق د. محمد عمارة ج١ ص ١٤٠ المؤسسة العربية للدراسات، مصر، وانظر د. محمد صادق فضل الله: نظرات في الحضارة، مجلة المنطلق ص ٥٣-٦٠ بيروت صيف عام ٢٠٠١م.

٥- سورة الانشقاق آية ٦ ، و سورة آل عمران آية ٧٩.

يستطيع الإنسان أن يتمثل الصفات الإلهية كمؤشرات للسلوك، فإن له إمكانية التعامل مع صفات الله لا بوصفها عينية منفصلة عنه، وإنما كصفات تمثل رائدا عمليا. ولأن الله هو المطلق، والمطلق غير متناهٍ، فإن باب الإبداع والنمو يبقى مفتوحا أمام الإنسان، وهو يتمثل صفات الله، التي يجب أن تتحول من التصور والفكر إلى الواقع والحياة، فالتأثير الأول للتوحيد هو الوحدة والانسجام في النفس والمجتمع، فالتوحيد يعني الوحدة، وحدة العالم بدليل وحدانية الله، فكل ظاهرة من ظاهرات الوجود البشري ينبغي أن تكون متصلة اتصالا كليا بشهادة أن لا إله إلا الله، ومعنى هذا عدم توزيع الإنسان، لا في فكره ولا في فعله.

ولذلك يقول الباحث "محمد صادق"(١) ويمكن أن نلاحظ الإحاطة الثلاثية بمجال الوحدة والتوحيد من خلال ارتباط التفكير بالتسخير قرآنيا(٢). ومن ثم فإن التركيز على مسؤولية الإنسان المزدوجة، فهناك المسؤولية الفردية والمسؤولية عن الأمة (٣) والانتساب الصادق للفرد إنما يكون للمجتمع البشري كله، والله يخاطب كل الناس، وهذا يعني وحدة المجتمع البشري، بل والجنس البشري كله في نظر المسلم لانتسابه لآدم(٤).

وهكذا تقوم الوحدة رغم اختلاف المجتمعات وحرية الإنسان ثمرة جهاده لتخطي المؤثرات المحيطة، ليبقى الجهد البشري مقياس التمايز :"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(الحجرات آية ١٣).

تتضمن هذه الآية جميع المعاني السابقة مع الأخذ في الاعتبار الغائيات العملية المتفاوتة سلبا أو إيجابا، التعارف ارتياد لفعل معرفي يقرع التنوع كأصل، ويمكن أن يمتد على حدود جماعية التعبير القرآني: الشعوب والقبائل، ضمن شفافية تكشف الأنساق العليا للإبداع العلمي الحقيقي، والترقي الاجتماعي الأخلاقي، كمائز للخيار الإنساني لنصل إلى التنوع كعين للوحدة مثلما هي الوحدة عين التنوع.

١- د.محمد صادق فضل الله: نظرات في الحضارة ص٥٥، ٥٦.

٢- سورة الجاثية آية ٣١ "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

٣- سورة الجاثية آية ٢٨.

٤- سورة الأعراف آية ١٧٢.

فالإسلام دين التوحيد، والتوحيد أبعد ما يكون عن الدمج والسكب في قوالب، أو النسق الذي يدفع إلى النتيجة كما هو التعبير في الفلسفة الأخلاقية، وهو ما لا يقتصر على المسار الفردي ،إذ من السهولة في مكان إمكانية التعميم على علاقات الأمم والشعوب في ما بين بعضها بعضا، هذا لو تجاوزنا النسق العام المثالي والمحاكي.

ينظر الإسلام إلى التاريخ والتجربة البشرية كوحدة، ومن هنا يأتي انتماء هذا التاريخ، وهذه التجربة إلى الإرث الإسلامي، فيجري استبعاد الغربة عن هذا التاريخ، ليحل محله التبني الكلي كإرث وانتماء وضمنا كاعتراف.

وهذه ميزة لم تتوافر في أي من الحضارات التي سادت. فالإسلام جامعية الوحي، يتبنى الإسلام العودة إلى الإبراهيمية(١)، بداية التجربة الإنسانية، ومطلقها المتدفق عبر النبوة في أول تفتح للنسغ الحضاري الإنساني، ومن هنا تبني التجارب الحضارية وتعاقبها بما يحمل من سند وتغيير. وهذه الحقيقة واضحة في القرآن الكريم "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"(الشورى آية ١١٣).

إن الأهم هنا هو المؤشر الذي يتحدث عن الدين الواحد الذي يتمظهر تاريخيا بالطريقة التي هي الشريعة، وهي أخص من الدين الذي يكون عاما لجميع الأمم وساريا في جميع الأزمان، ومن هنا القدرة على التقاطع الواسع مع الحضارات والأديان، وما يستتبعه من دمج وتأليف وتركيب، وهو ما يتوهم في أحيان كثيرة أنه اقتباس.

يبرز هذا الفهم بوضوح جلي في التعاطي مع بنيان حضاري إنساني كالحضارة اليونانية، مثلا، فقد جرى التقاطع الثقافي الكلي محاورة وتحليلا وتمثلا ضمن السياقات الميتافيزيقية الخاصة، بحيث كان كل شيء مفتوحا على الصعيد الثقافي، بينما بقيت الروح الحضارية المصفاة التي لا تهدأ(٢).

١ـ سور الأنعام آية ١٦١، النساء آية١٢٥، يوسف آية٣٨، النحل آية ١٢٣.

٢ـ انظر د. محمد صادق فضل الله: المراودة الثقافية بين الإسلام والغرب ص١٩ـ ٢٨ بيروت ١٩٨٩.

ذلك ما نستشفه من أن الفلسفة اليونانية قبل سقراط لم تصل إلى الحضارات الإسلامية إلا ناقصة وضمن كتب منحولة (١)، وهو ما علله الشهرستاني بأنه تجاوز إسلامي، حيث لم يذكر فلاسفة الإسلام قدامى اليونان إلا نكتة شاذة ونادرة (٢).

وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم عدم اكتراث المسلمين بآلهة اليونان التي ذكرها هوميروس وهزيود في ما كتبوه، وعدم ترجمتهم للشعر والأدب اليونانيين، وهو ما أبقى روح هذه الحضارة بعيدة عن الفرد المسلم ومجتمعه، بعكس ما حصل للثقافة الفارسية التي أسلم أصحابها واستخدم المسلمون مؤسساتهم وبناءهم الحضاري والمادي والأدبي والإداري(٣).

وكما حصل مع اليونان، فقد جرى التمييز الحضاري الهندي بين العلوم والفلسفات، فأخذ التجريبي والعملي والطبيعي، واستبعد الديانات والفلسفات لتعارضها مع روح الحضارة الإسلامية (٤). وقد تم ذلك عبر عمليتين تستبطنان احتراما للنتاج البشري، بحيث لم يغب التقاطع مع هذه الحضارة المتنامية ولو جزئيا، تبعا لحيوية الروح الحضارية الإسلامية.

يمكن أن يُتبنى محور هذا التوجه على ما عمل عليه مؤرخو الفكر الفلسفي الإسلامي من تعليل حاولوا من خلاله أن ينسبوا لفلاسفة اليونان الماديين آراء في الإبداع الإلهي والصفات، مثل ما فعله القفطي منذ البداية، إذ عمل على تركيز أرضية إسلامية لنتاج الحكمة البشري(٥)، جريا على نسق حضاري ضارب في البناء الفلسفي الإسلامي.

فالكندي وانطلاقا من الحديث النبوي "الحكمة ضالة المؤمن" حاول أن يؤسس لفهم يأخذ الحق وتعيينه من أي جهة أتى، ويعتبر أن معرفة الحقيقة ثمرة لتجارب الأجيال الإنسانية في عصور متعاقبة(٦). وهو هنا أقل

١ـ دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبو ريدة، ص ٤٠ وما بعدها القاهرة ١٩٥٧.

٢ـ الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق الكيلاني ج٢ ص ٦١ الحلبي، القاهرة ١٩٦١.

٣ـ انظر د.محمد صادق فضل الله: المراودة الثقافية السابق.

٤ـ البيروني: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٠ حيدر أباد الدكن .

٥ـ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٦ ـ ٧ دار الآثار بيروت.

٦ـ الكندي: رسائل الكندي الفلسفية تحقيق أبو ريدة ص ١٠٣، ١٠٤ مصر عام ١٩٥٠.

تاريخية من الفارابي الذي اعتبر أن الحكمة تراكم وتواصل، فهي خط بدأ في الشرق ببابل ومصر ثم اليونان، فبلاد الإسلام، فالحكمة واحدة، والاختلاف في الدرجة لا النوع(١). ويعلل مسكويه أخذه للحكم البشرية بأن عقول الأمم كلها تتوافى على طريقة واحدة لا تختلف باختلاف البقاع ولا تتغير بتغير الأزمنة(٢). تتسع هنا دائرة الفعل الثقافي، ويثري التقاطع الحضاري، ما يسمح بالمقايسة والامتصاص أو الهضم بحسب تعبير "أرنالديز وفالترز"، فقد أخذا مثالا على الهضم كتاب "الحروف" للفارابي كأرقى عمليات الانفتاح والهضم في أفق حضاري إسلامي لم يعد بعد غروبه من وطن للعلم كما يقول.

ولذلك يذهب "فالتزر "إلى أن الأعمال المؤلفة من قبل الفلاسفة العرب تظل أهم بكثير من الأعمال المترجمة، فهي تبين لنا كيف فهم العرب المحاجات الفلسفية الإغريقية وكيف هضموها لصلحتهم واستغلوها، كما أنها تمكننا أيضا من معرفة ماذا عنت كل هذه الأفكار الإغريقية بالنسبة إلى المسلم، وكيف استخدم الفلاسفة المسلمون فرديا المحاجات المستعارة من الفلسفة الإغريقية للرد على تساؤلات عصرهم، وهذه هي السمة المتعة للفلسفة الإسلامية(٣).

كما يؤكد على ذلك المستشرق "مونتغمري وات" الذي أشار إلى أن الإسلام عمل على استثارة الشعور بالذات عند الأوروبيين عندما كان هو الغالب حضاريا، وذلك بتعاطيه مع أوروبا(٤)، لقد كان هذا الأمر طبيعيا ضمن الأفق الإسلامي الحضاري، فهو انسياب في دوائر الإسلام الأثير، وهي الدوائر الكوكبية التي تستفرغ الطاقة الإنسانية في حدودها الممكنة كما رأينا. إن العمل على استثارة الذات عند الآخر يتجاوز حدود الاعتراف إلى تثبيت قيمة الاعتراف بمعنى ملاحقة القيميات عند المختلف، بكل ما تحمله هذه الملاحظة من إيمان بالإبداع الإنساني وتنوع هذا الإبداع، ومن القدرة على الاتصال بالآخر وإثراء التبادل الثقافي الحضاري، وتاليا التعاطي مع الإنسان كقيمة تنبت العطاء والحوار، وقبل كل شيء الاحترام بما يحمله من نظرة موضوعية مجردة.

١ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا ج٢ ص ١٢٣، ١٣٥ دار الحياة بيروت عام ١٩٦٥م.

٢ـ مسكويه: الحكمة الخالدة، تحقيق د.عبد الرحمن بدوي ص ٣٧٦، بيروت، دار الأندلس ١٩٨٠م.

٣ـ هـ أرنالديز: المنطلق العدد٣ ص١١ـ١٣ رمضان عام ١٣٩٨هـ

Rwalzer, Greek into Arabic, Oxford, 1962 pp. 237_- 238.

٤ـ وانظر د.محمد صادق فضل الله: نظرات في الحضارة والتفاعل الحضري، ترجمة حسين أمين ص ٨٥ ـ ٥٩ السابق.

أزمة الغرب:

وفي المقابل نجد الغرب يسقط فريسة للمادية الكاملة، فالحضارة الأوروبية في العصور الوسطى كانت المحور الذي يدور حوله نوع من الثقافة "الزهدية والنسكية"، وكانت تلك الثقافة تتمحور حول قيمة رئيسية، تتمثل في وجود الله تعالى، لكن هذا المبدأ المحوري قد بدأ في الذبول مع نهاية القرن الثاني عشر ومع بزوغ الفلسفة الحسية.. ومن تنامي الاتجاه الحسي مع المبدأ الذي كان سائدا من قبل تشكل اتجاه جديد من الثقافة المثالية Idealistic ولكن هذه المرحلة القصيرة سرعان ما ذابت بدءا من القرن السادس عشر حيث بدأت سيطرة الاتجاه المادي، ومن بعد دخلت الحضارة الغربية بقوة في عصر الثقافة الحسية Sensate حيث تسود المبادئ الدنيوية والعلمانية.

لقد كان ذلك كله يحدث بفضل الإنجازات العلمية غير المسبوقة، وبعد سيادة الاتجاهات لاستخدام منهج البحث العلمي، ولذلك استبعدت الرؤية الغربية كل ما ليس ماديا وكل ما هو متجاوز للحواس بما في ذلك وجود الله تعالى. مما أدى إلى شيوع الاتجاهات المادية الميكانيكية المتطرفة والتركيز على اغتنام اللذات الحسية وسيادة الاتجاهات الجنسية والوضعية والنفعية ولم يُنظر إلى الإنسان إلا على أنه كائن بيولوجي لا قيمة خاصة له (١).

ولقد أدى هذا كله إلى دخول الحضارة الغربية أزمة وجودية حقيقية تفتقد فيها للروحانية وللأبعاد الماورائية بعد أن سطحت الرؤية إلى الإنسان في بُعد واحد فقط هو بعده المادي والحسي، تلك هي الحضارة الغربية وقيمها السائدة التي تريد فرضها علينا بقوة العولمة الحديثة، مستخدمة في ذلك كل وسائل الثورة المعلوماتية الحديثة (٢). ومن هنا فالتحدي الأكبر الذي يوجه مجتمعاتنا الإسلامية يتمثل في كيفية المحافظة على نمطنا الثقافي الأقرب إلى النمط المثالي والذي يرى الصورة الحقيقية في صورتها التكاملية، التي تدعم قيمها الروحية والماورائية في نفس الوقت الذي تدعم فيه الجانب الحسي والمادي، وهذا يتمثل جيدا في **الوسطية الإسلامية** التي حققها الدين الإسلامي بالجمع بين الأبعاد الروحية والأبعاد المادية، وبذلك يتعزز المستقبل في

١- Sorkin Pitrima. (1992) Orlig The cricic of our Age, 2 nd ed. OXFORD, one world publications pp.252.

٢- د.إبراهيم عبد الرحمن رجب: الشباب والقيم الروحية في عصر العولمة، مجلة المسلم المعاصر العدد١٠٤ ص ٥٣ إبريل عام ٢٠٠٢م.

العالم الحديث لمبادئ الإسلام وقيمه العليا، لأنه يقود العالم والإنسانية إلى الخلاص بعد فشل الرأسمالية الغربية وفشل الشيوعية وسقوط النظم الشمولية(١). وهذا ما تؤشر به تصريحات علماء الغرب الذين بدأوا يحذرون العالم الغربي من سقوط تلك الحضارة، فلقد صدرت تحذيرات للحضارة الغربية لا من رجال الدين، بل من أقوال أقطاب العلم وزعماء السياسة، فنجد "روبرت ميلكان" العالم الطبيعي الأمريكي يقول: " إن أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق، ولقد كان هذا الإيمان سببا في الحرب العامة، وإذا لم تجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة، بل يصير العلم نكبة على البشرية (٢).

إن القيم والمعايير المستمدة من خالق الإنسان والكون، والعالم بكينونته وحاجاته وأهوائه، والمجسدة في سيرة النبوة وبيانها، بعيدا عن وضع الإنسان وعبثه، واستغلال الإنسان، مؤهلة لأن تكون معايير الشهود على الذات و(الآخر). لذلك فالقيم المستمدة من النبوة لا يمكن إلا أن تكون واقعية، قابلة للتطبيق حيث تعتبر مناط التكليف هو استطاعة الإنسان وفطرته واستعداده"(٣).

ومن هنا فالقيم التي تعتبر الخيار وعدم الإكراه مرادفا لإنسانية الإنسان وكرامته، هي قيم مؤهلة للحكم والشهادة والقيادة للناس، والقيم التي استوعبت الحركة الحضارية التاريخية، وقدمت قوانين وأسبابا وسننا لسقوطها ونهوضها وانتهت إليها أصول النبوات السابقة، واستصحبت الصواب من تاريخ الإنسانية وتجاربها، وحددت مواطن الخلل، وحررت المعايير في الانحياز مؤهلة للشهادة على الذات والآخر.

إن المساواة والعدالة وحرية الاختيار والشورى في اختيار الحاكم وإدارة شؤون الحكم وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وإقامة حراسة يقظة الوازع من داخل الإنسان ووضع تشريع ملزم من خارج النفس هي قيم جديرة بالشهادة على الذات والآخر(٤).

١ـ موسى أبو الريش: العولمة والمستقبل، مجلة الكلمة العدد ٢٥ص١٠٥، ١٠٦ بيروت ٢٠٠٢م.

٢ـ انظر د. بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة.. رؤية نقدية، كتاب الأمة العدد٨٦، قطر عام ٢٠٠١م.

٣ـ د. نعمان عبد الرزاق: نحن والحضارة والشهود، ص ١٧، ١٨ كتاب الأمة، العدد٨٠ السابق.

٤ـ د. نعمان عبد الرزاق السامرائي: نحن والحضارة والشهود، كتاب الأمة ص ١٨ السابق.

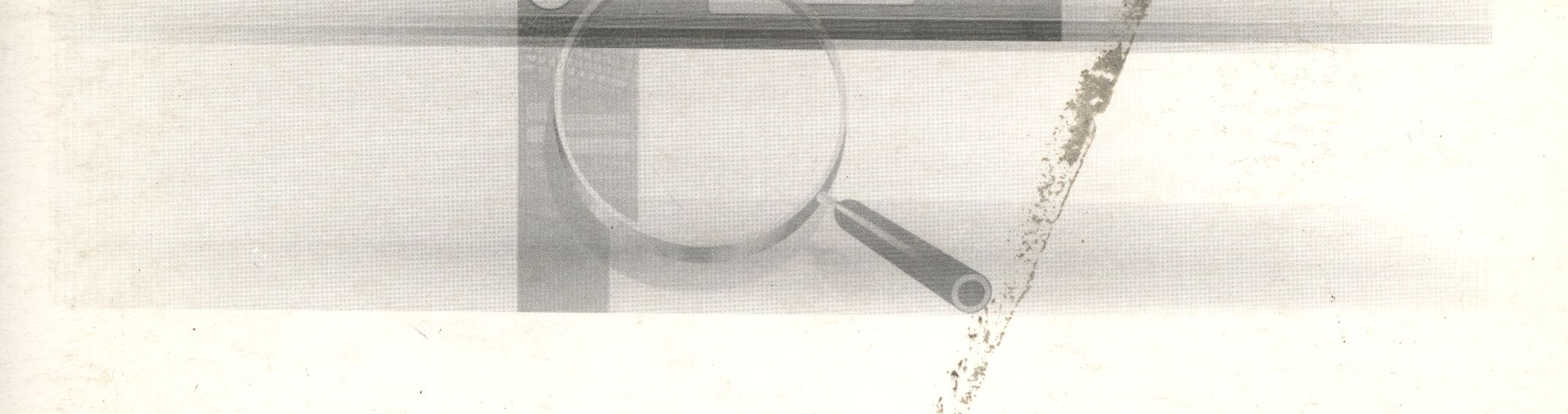
الفهرس



سلسلة كتب
ودراسات وبحوث
تصدر عن
مجلة الرافد

الإمارات العربية المتحدة – الشارقة – ص.ب: ٥١١٩
هاتف: ٠٠٩٧١٦٥٦٧١١١٦
براق: ٠٠٩٧١٦٥٦٦٢١٢٦

designed by mohd. ba'shen



تصفح  على الموقع الإلكتروني:

www.arrafid.ae

دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: ٥١١٩ / هاتف: ٠٠٩٧١٦٥٦٧١١١٦ / برَّاق: ٠٠٩٧١٦٥٦٦٢١٢٦